مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الأنفَالِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الأنفال

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

سورة الأنفال

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

ابتدأت سورة الأنفال الكريمة بقضية الغنائم، التي هي الأنفال. فقال الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وجاء مطلع السورة بجملة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ والتي تفيد أن هناك سؤالاً قد صدر من بعض الصحابة رضي الله عنهم في قضية توزيع الأنفال، وأن السائلين كُثُر، لأن لفظة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ تفيد الكثرة، كما يفيد هذا ويبين علم الله تعالى الواسع، وكمال إحاطته بما يدور من حوار وتساؤلات، وأن القرآن الكريم يعالج القضايا والإشكالات التي ترد وتحدث في عهده صلى الله عليه وسلم، فتكون الإجابة بما يعالج السبب، غير أن سياقها يجعل سلطان حكمها يمتد إلى عموم اللفظ، فينقله من خصوص السبب إلى عموم اللفظ، ليكون منهجاً عاماً، أو حكماً عاماً، مما يبين قوة البيان وبلاغته الإعجازية في القرآن الكريم بجمعه بين المعالجة للقضية الحاصلة وبين المعالجة الكلية لما هو قادم.

فقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم في أمر الأنفال في غزوة بدر التي هي أول غزوة في الإسلام، وقد تحقق بها النصر وتحصيل الغنائم من المشركين، وجاء الجواب من الله تعالى في بيان جامع شامل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فالأنفال هي الغنائم، وذكر الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أن الأنفال: جمع نفل، وهي الغنيمة، وأصل النفل الزيادة، ومن ذلك إطلاق النافلة على التطوع، لكونها زائدة عن الواجب، وسميت الغنيمة نافلة لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرهم، أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد.[1] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: النفل الغنيمة، لأنها من فضل الله تعالى وعطائه، والنفل ما ينفله الغازي، أي: يُعْطَاه زائداً على

(1) الشوكاني، فتح القدير (٢٨٣/٢)

سهمه من الْغُنْمِ، كقول الإمام تحريضاً على البَلاء في الحرب: من قتل قتيلاً فله سلبه، أو أن يقول لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو فلكم نصفه[١] وذكر الجرجاني في تعريف النفل: أن النفل لغة: الزيادة، ولهذا سميت الغنيمة نفلاً لأنه زيادة على ما هو المقصود من شرعية الجهاد، وهو إعلاء كلمة الله تعالى، وقهر أعدائه، وفي الشرع: اسم لما شرع زيادة على الفرائض والواجبات، وهو المسمى بالمندوب والمستحب والتطوع[٢] وملخص ذلك أن الأنفال هي الغنائم التي يحصل عليها المسلمون من الحرب، وسواء ما يكون زائداً بخصيصة أو لعلة، أو ما كان بالتساوي، فالحكم فيها لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ فالحكم والتوزيع لها يكون وفق ما يقضي به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وواجبكم أن ترضوا وتسلموا. وعلى من يخلف في إمامة المسلمين أن يسير في توزيعها وفق ما سَنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم. مما يعطي فوائد عديدة في أمور كثيرة، منها: التفويض للإمام بالعمل وفق ما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك قطع المنازعة بين المخصوصين في الاستفادة من الغنيمة، وذلك بتفويض الأمر لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وفي هذا تقوية له بالتفويض والفصل في الأمر، مع التشجيع له، وتقرير وجوب طاعته وبما يحكم به بين جنوده ومَنْهُم تحت إمرته. وقد تناول علماء التفسير والفقه جميع ما يتعلق بتقسيم الغنائم، وكيف كان يوزعها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتم بيان ملخصها في مكانها من هذه السورة فيما هو قادم بإذن الله تعالى.

ثم يأمر الله تعالى بالتقوى وإصلاح ذات البين ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾

فمنهجية الإصلاح تنطلق من التقوى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ مما يفيد أن المتقين هم القادرون على إصلاح ما بينهم من خلاف، وأما من فقد التقوى فإنه عاجز عن أن يُصلح ما بينه وبين إخوانه المسلمين، لأن حظوظ النفس هي الغالبة والمتعالية والمسيطرة على التفكير، وعلى اتخاذ القرار وعلى النفس ذاتها. وأما المتقون لربهم تبارك وتعالى فإن السيطرة تكون لإحقاق الحق، ولو استقطعه من نفسه وأهله وماله، ومن أنفس ما لديه. فالمرحلة العلاجية الأولى: تنطلق من التقوى التي يتحقق بها ومنها إصلاح ذات البين، مما يفيد أن قضية المعالجة البنائية والعلاجية للمجتمع في دوائره المختلفة إنما تنطلق من هذا الترتيب الرباني. فمن ثمرات التقوى: أن بها يتحقق الصلاح الذاتي، ليمتد نحو صلاح النفس مع غيرها، وأن في المتقين دواعي الحرص على البناء الاجتماعي، والحيلولة دون هدمه.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١٩٠/٢)

(٢) الجرجاني، التعريفات (٢٤٥)

ومن الغزارة البيانية أن الله تعالى جمع جماع العلاقات الاجتماعية في قوله سبحانه وتعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ لِمَا تشتمل عليه من مكارم الأخلاق، وبذل البر، وكف الأذى، واحتمال الأذى، وحُسن سياسة وتدبير أمر العلاقات.

ثم يأمر الله تعالى المؤمنين بطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في قسمة الأنفال ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فارضوا واقبلوا ما أمرتم به في شأن تقسيم الغنائم وغيرها، وفي هذا استدفاع واستنهاض لهم للسعي نحو خصال الكمال. ومن حُسن البيان وجزالته وسعة سلطانه أن جاء الأمر بالطاعة في سياق العموم، ليستوعب الطاعة المخصوصة والعامة، فيكون فيما هو خاص بقسمة الغنائم، وفيما هو عام في كل أمر من غير تخصيص، فاستوعب النص الكريم بدقة سياقه غيرهم ممن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة، بوجوب طاعة الله وتعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقبول ما فرض وحكم به. وقد ربط الله تعالى بين الطاعة وصدق الإيمان ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن كنتم مؤمنين حقاً فأطيعوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما تُؤمرون به، وتُنهون عنه، مما يدل على أن الامتثال لله ولرسوله بالطاعة معيار لحقيقة الإيمان وصدقه. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم المثال الذي يُقتدى بهم في الطاعة والامتثال، فكانوا خير جيل، حتى قال عليه الصلاة والسلام (خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[١] وقال عليه الصلاة والسلام (فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه)[٢]

ثم يبين الله تعالى حال وصفات المؤمنين مع ربهم تبارك وتعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فبدأ النص الكريم بقصر صفات كمال الإيمان بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ ليبين عظيم منزلة هذه الصفات من بين عموم الصفات العامة للمؤمن، التي هي أصل الإيمان، والتي هي أركان الإيمان الستة. فمن كَمُل إيمانه اتصف بهذه الصفات، التي تمثل صفة كمال الإيمان، وفي هذا استحثاث وتشجيع للمبالغة في تحري تحقيق الكمال في الإيمان. وبالفعل ما خالف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي في أمر، بل كانوا مثالاً للطاعة والانقياد والإجلال لله تعالى ولمقامه صلى الله عليه وسلم.

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٧١/٣) برقم (٢٦٥١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١٢/٣) برقم (٣٦٧٣)

فأول صفات كمال الايمان وذروته ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ فإذا ورد ذكره عَزَّ وجل، خاف، فوجل قلب المؤمن، وذلك باستشعار الخوف والهيبة والخشية والتعظيم لمقامه وجلاله سبحانه وتعالى، مما يفيد أن انبثاق الوجل إنما يصدر من القلب، فتنعكس حقيقته على الجوارح في تصرفاتها، بما يفيد أن التصرفات البشرية إنما تصدر بما يجيش في القلب من خوف أو من عدمه أو ضعفه، أو من حب أو كره، أو تفضيل بين أمرين، فكل ما يظهر على الجوارح هو بما تكنه القلوب، فتجيش به عملاً. ويفيد هذا أن قليل وضعيف الإيمان لا يكون حاله بمثل ذلك، مما يؤكد أهمية الإيمان ومنزلته، وقدرته على امتلاك المشاعر وتصريف الجوارح، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

والصفة الثانية: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ وإذا قرئت عليهم آيات الله تعالى وبراهينه وحججه ومغفرته وعذابه، والجنة والنار، وجميع ما في كتابه الكريم ازداد بذلك إيماناً على إيمانه، فازداد تصديقاً وخشية ورغبة ورهبة ومحبة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللطاعة والامتثال. وفي قوله تعالى ﴿ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ ما يفيد ويدل على أن إيمان المؤمن يزيد ويقوى بآيات الله تعالى، سماعاً وقراءة وتأملاً.

والصفة الثالثة: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وهو التفويض والاعتماد على الله تعالى في تحقيق المطلوب، ودفع المكروه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى في صفات هؤلاء المتوكلين: أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، هو سريع الحساب[١] مما يفيد أنهم ينفون التوكل والاعتماد على غير الله تعالى في تحقيق المطلوب ودفع المكروه، وأما الأخذ بالأسباب، فقد أمر الله تعالى بها، مع اليقين أنها لا تنفع بذاتها إلا بإذنه جَلَّ جلاله، فيوقن المتوكل على الله تعالى أن ما أراده الله تعالى كائن، وما لم يرده لن يكون مهما كانت الأسباب، مما يدفع المتوكل على الله تعالى إلى الدعاء والرجاء، والخوف من عدم تحقق المقصود، والأمل وحسن الظن بالله تعالى في جلب كل مرغوب نافع، ودفع كل مكروه ضار.

والصفة الرابعة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فبعد أن ذكر الله تعالى أحوال الاعتقاد والإيمان، وما يرتبط بها مِن وجل القلب عند ذكر الله تعالى، وتفاعل القلب مع آيات الله تعالى بما يزيده إيماناً وعزيمة في القلب والفعل بالتوكل على الله تعالى، يذكر عَزَّ وجل أهم صفتين من الأداء العملي، الأولى: إقامة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٩٨)

الصلاة، وهي الصفة الرابعة ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وإقامة الصلاة بمعنى أداؤها كما أوجبها عَزَّ وجل، وأوضحها وطبقها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي تمثل العلاقة بين العبد وربه، كما جاء في الحديث القدسي (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ...) [١] ثم ذكر سبحانه وتعالى الصفة الخامسة، التي هي الثانية من الأداء العملي: والتي تمثل العلاقة بين العبد وبين مجتمعه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ليشمل ذلك الزكاة والصدقة وغيرها من الحقوق الواجبة والمستحبة، سواء ما كان متعلقاً بأسرته أو أقاربه أو جيرانه أو الضعفاء والمساكين أو كان في سبيل الله تعالى، فلا يبخل في الإنفاق.

ومن دقة البيان التي تحمل رحمة الله تعالى بالمنفق، أنه لم يُوجِب عليه في الإنفاق جميع ما لديه ولا نصفه ولا ربعه، بل ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ لتفيد التبعيض، أي: بعض الرزق وليس كله، ولا أغلبه، بل بما تطيب به النفس، وبما يُقَدِّرُه المنفق وتجود به نفسه، من غير الزكاة التي حددها تبارك وتعالى بمقادير معينة ومحددة، كما بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن دقائق البيان أن نسب الله تعالى الرزق والعطاء الذي عند عباده إليه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فنفقتهم هي مما رزقهم الله تعالى، فما يكسبه الإنسان هو بعطاء الله تعالى وتوفيقه. وهذه الدقائق البيانية تدل على الإعجاز البلاغي والبياني، وكذلك الإعجاز التوجيهي للقرآن الكريم، وتدل على رحمة الله تعالى بالعباد، إذ لم يأمرهم إلا بما يستطيعون، وبأقل منه، فالحمد لله تعالى على تشريعه وعلى معجزة بيانه.

ثم أخبر تعالى عن حقيقة هؤلاء المتصفون بتلك الصفات، فإن هؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حقاً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي: هم المؤمنون إيماناً حقيقياً. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي: الذي استوى في الإيمان ظاهرهم وباطنهم، ودل هذا على أن لكل حق حقيقة[٢] لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، وبين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله تعالى وحقوق عباده، وقدم الله أعمال القلوب لأنها أصل أعمال الجوارح، وأفضل منها[٣] فهؤلاء المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم بحسب أعمالهم ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فحظي هؤلاء بالمراتب

(١) مسلم، صحيح مسلم (٩/٢) برقم (٣٩٥)
(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٢٣٣/٧)
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٨٨/٢)

الرفيعة في الجنة، وكذلك بمحو الذنوب وسترها، وبالجنة التي هي الرزق الكريم كما ذكر قتادة رضي الله عنه[١] وهو ما أعده الله تعالى في الجنة من الرزق الذي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال ولا على قلب بشر. وعن درجات الجنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن أهل الدرجات العلا ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعما)[٢] وقال صلى الله عليه وسلم (إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما تتراءون الكوكب في السماء)[٣]

ومن فوائد دلالة ﴿ دَرَجَٰتٌ ﴾ بما يفيد تعددها وتفاوتها، وتعظيم أمرها، وأهمية السعي لتحصيل أرفعها. وبينت جملة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ مقام التشريف والتعظيم للمنزلة والرفعة عند الله تعالى، وتفيد كلمة المغفرة ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ التجاوز عن الذنوب بعد ثبوتها وثبوت استحقاق العقوبة عليها، فسامح وستر سبحانه وتعالى بفضله وكرمه وستره، وإنها لمكرمة عظيمة من الله تعالى. وأبان قوله تعالى ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أن الرزق موصوف بالكريم، مما يدل على العطاء النفيس من المستطاب، فكيف إذا كان هذا التكريم من الله تعالى المتصف بالكرم والجود، فإنه كرم متجاوز للوصف، مما لا يتوقعه ولا يتصوره العبد. وفي ذلك تعظيم لعطاء الله تعالى، وتعظيم لمقدار الرزق، ورفعة لمكانة المرزوق، واستحثاث للمؤمنين نحو التسابق لمكارم وكرم الله تعالى، وفيض عطائه.

وفي هذه الآية الكريمة ما يستدفع المؤمنين ويشجعهم نحو الطاعة والتآخي والتواد، والسعي نحو تحقيق كمال الإيمان. وتفويض الأمر لله تعالى بقبول أوامره ونهيه بحب وامتثال وطاعة وتنفيذ، من غير تردد ولا تلعثم. كما أن في هذه الصفات ما يفيد المدح والثناء لمن أطاع الله تعالى وتمثل بها، وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢/١١)
(٢) الترمذي، سنن الترمذي (٥٦٧/٥) برقم (٣٦٥٨)
(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٢٠١/٤) برقم (٦٥٥٥)

دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان حال المؤمنين حيال غزوة بدر، وما في ذلك من عظيم العبرة وعظيم حكمة الله تعالى في تدبيره وقضائه، ليدرك الإنسان أن رؤية العبد قاصرة أمام علم الله تعالى وحكمته وتدبيره ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ فإن الله ربكم هو الذي قضى بخروجك من بيتك، وهيأك للخروج من المدينة إلى بدر، وكان إخراج الله تعالى لك يا أيها النبي ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ فهو خروج بالحق الذي هو الصواب، فأوجب عليك الخروج لما معك من الحق الواجب، والمتضمن للحكمة والصواب وتحقيق المصلحة، الذي لا حيدة عن إمضائه.

وعلة وسبب هذا الخروج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمع بأن أبا سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة، وفيها أموال وتجارة لهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، فندب المسلمين إليها، وقال عليه الصلاة والسلام: (هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله يُنْفِلُكُموها)(١) وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: قال: لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب إليهم المسلمين، وقال (هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله أن يُنَفِّلَكُموها) فانتدب الناس، فخفَّ بعضُهم، وثقُل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حرباً(٢)

وجملة ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ تفيد بأن هناك أمر ثابت أثبته الله تعالى وهو ما سيكون من أحداث غزوة بدر، وأن خروجه صلى الله عليه وسلم ثابت ومتحقق، وقيل أنها الأنفال. قال الزجاج: أي: الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، أي: بمثل إخراج ربك لك من بيتك بالحق. والمعنى: امض لأمرك في الغنائم ونَفِّل من شئت، وإن كرهوا. وذكر الإمام القرطبي أنه قيل في معناها: فكما أنجز هذا الوعد في الدنيا كذا ينجز لكم ما وعدكم به في الآخرة، وهذا قول حسن، ذكره النحاس، واختاره(٣)

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢/٢٥٧-٢٥٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٣٦)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٣٣-٢٣٤)

كما تدل جملة ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ على أن خروج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة تجاه بدر لعير قريش هو بأمر من الله تعالى، وليس تصرفاً من تلقاء نفسه صلى الله عليه وسلم، فكما أخرجك ربك بأمره وقدرته، مع كراهة فريق من المؤمنين للقاء العدو، وحقق لكم ما لم تتوقعوه. مما يفيد التعجب من قصور علمهم بما سيقضي الله تعالى به، فإن الله تعالى ناصرك والمؤمنين، وجاعل الظفر لك وللمؤمنين ولدينه. فبالرغم من ذلك إلا أنه تحقق مراد الله تعالى كما يحب، وكما قضى به.

ثم يبين الله تعالى واقع المؤمنين ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ بأن فريقاً منهم كانوا كارهين للقاء العدو، لرغبتهم في الخيار الثاني: الذي هو الظفر بعير قريش ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ وقد ذكر أهل التفسير أقوالاً كثيرة، وقال ابن جرير الطبري عن تلك الأقوال: وأولى الأقوال من قال بقول مجاهد، وقال في معناه: كما أخرجك ربك بالحق، على كره من فريق من المؤمنين، كذلك يجادلونك في الحق بعد ما تبين، لأن كلا الأمرين قد كان، أي: خروج بعض من خرج من المدينة كارهاً، وجدالهم في لقاء العدو، عند دنو القوم بعضهم ببعض، فتشبيه بعضٍ ذلك ببعض، مع قرب أحدهما من الآخر. وقال مجاهد في الحق الذي ذكر ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ ﴾ أنهم يجادلون فيه النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما تبينوه، وهو القتال[1] يعني القتال يوم بدر، لأنهم خرجوا بغير عدة، فقالوا: هلاَّ أخبرتنا بالقتال لنأخذ الْعُدَّة، فجادلوه طلباً للرخصة في ترك القتال ﴿ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ لهم فرضُه، وقيل صوابه[2] وفي هذا ما يفيد عتاب الفريق على جداله في الحق، وقد سماه الله تعالى ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ ﴾ ليبين وضوح وجوب الطاعة والامتثال بالقتال وترك العير، خاصة مع تعيين النصر بأنه حاصل. وفي هذا درس لما هو قادم، وتربية وتوجيه لما يجب أن يكونوا عليه في قادم الأيام، فهو توجيه وتربية وتعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين بكيف يكون حالهم وفهمهم لتوجيه نبيهم صلى الله عليه وسلم. وجملة ﴿ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ تفيد تأكيد الحق، بأنه أصبح ظاهراً بائناً لا إشكال فيه، ولا مُوجب للاختلاف فيه. فقد فاتت العير، ولم يبق إلا لقاء العدو. مع الوعد بالنصر والظفر.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حالهم عند مجادلتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ فحالهم كحال من يؤخذ للموت وهو ينظر إليه، ويعاينه أمامه، وفي هذا دقة عميقة في الكشف عن أدق أحوال النفس وما يجيش بداخلها، مما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى. وفي هذا بيان لما

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٣٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢١٩)

عَلِمَهُ اللهُ تعالى عَمَّن جادل في ذلك. وفي هذا كشف لطبيعة النفس البشرية، وتباينها في تحليل المواقف واتخاذ القرار الأنسب والأصلح، ولكن لإيمانهم فإن الفريق الذي جادل قاتل ولم يتخلف منهم أحد، مما يبين أن مجادلة الفريق الذي جادل لم يكن جدال امتناع، بل كان الجدال في عدم اختيار القتال. وفي هذا البيان من الله تعالى لحال الفريق الذي جادل، فإنه ما زادهم إلا إيماناً.

والغرض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه خروج النفير، أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين: إما العير وإما النفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير، لأنه كسب بلا قتال[١] ولكن أبا سفيان، لما علم بذلك أرسل لقريش بما علم من شأن النبي صلى الله عليه وأصحابه، فخرجت قريش إلى بدر، وتوجه هو بالعير والتجارة تجاه الساحل، وقد وعد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأحد أمرين: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ إما طائفة العير وما تحمله من تجارة قريش، أو أن تظفروا بمشركي قريش الذين خرجوا من مكة لمنع عيرهم وحمايتها. وفي هذا البيان الكريم ما يفيد تحقيق الظفر على ما كان عليه الفريقان ﴿أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ فقريش قد وردت بدر مستعدة للقتال برجالها وسلاحها، والمؤمنون مع رسولهم صلى الله عليه وسلم قليل العدد، ومن غير استعدا لهم بالسلاح، ومع هذا فإنهم موعودون بالظفر، وإن في ذلك لآية عظيمة قبل حدوثها، وتحققها بعد ظفر المسلمين بكفار قريش.

وجملة تقرير قضاء الله تعالى بأنها لهم ﴿أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ أفادت الفصل في الأمر قبل أن يقع، بأن الظفر لكم، فهو أمر معجز، خاصة في تلك الظروف التي كان عليها المؤمنون حتى يتبين أن ما يريده الله تعالى كائن لا محالة، وأن ما لا يريده ولا يقضيه لا يكون أبداً ﴿أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ وقد كان عدد قريش في بدر من التسعمائة إلى الألف رجل، بينما المسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً. فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم من كفار قريش، ولكن بعض الصحابة رضي الله عنهم رغبوا في العير ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ ذكر ابن الجوزي وغيره: أنه سار رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد القوم، فكره أصحابه ذلك، وودُّوا أن لو نالوا الطائفة التي فيها الغنيمة دون قتال، فذلك قوله تعالى ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ وذات الشوكة أي ذات السلاح، يقال ما أشد شوكة بني فلان،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٩٩/٢)

أي: حَدَّهم[١] وغير الشوكة هي الغنيمة من غير حرب. وجاء البيان عن رغبتهم في العير بلفظة ﴿وَتَوَدُّونَ ﴾ وهو محبة الشيء وتمني حصوله، فأظفر الله تعالى المؤمنين بذات الشوكة التي كان فريق منهم قد هاب في البداية ملاقاتهم، وذلك للمفارقات بين الفريقين في العتاد والعدة، ولكن أمر الله تعالى وقضاؤه كائن لا محالة. وهذا يعطي دروساً للمؤمنين في تربيتهم على أن الأمور تسير بتوفيق الله تعالى وقدرته وتدبيره، وأن الأسباب مع أقدار الله تعالى تضعف وتقوى بحسب إرادته عَزَّ وجل، وأن هذه الآيات تزيد المؤمنين إيماناً، وتكشف لغير المؤمنين أهمية التدبر في أمر الإسلام، وأهمية مراجعة أنفسهم، وأن علامات نبوته صلى الله عليه وسلم تتزايد وتظهر.

ثم يبين الله تبارك وتعالى اختياره ومراده ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فإن مراد الله تعالى أبعد وأعظم أثراً من الغنائم المادية، فإن إرادته عَزَّ وجل تتجاوز المنفعة المادية القليلة، وتتجاوز موانع القلة في العدد والعتاد عند المسلمين، وكثرة العدد والعتاد والاستعداد عند المشركين ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ فإن الله تعالى يريد أن يُحق بهذه المعركة نصرة الإسلام والمسلمين، ويُظهِر قوة دينه ومن دان به، وقوة رسوله صلى الله عليه وسلم ونصرته ومن آمن معه، ويكشف الله تعالى لهم: أن قلة العدد والعتاد لا تحقق الهزيمة لهم إذا كان الله تعالى معهم، وأن كثرة عدد العدو، وقوة عتاده لا تحقق النصر له إذا لم يكن له نصر من الله عَزَّ وجل، فإن النصر من عند الله تعالى، وأن قوة الله تعالى هي الغالبة، وليس أدل على ذلك من واقع المشهد الذي لا يدل حسب المقاييس والأسباب أن يقع منه النصر للمسلمين، ولكن ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ وقد قال الله تعالى منهاً ومبيناً لإحقاق الحق بأنها بكلماته ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ وذلك بأمره لكم أيها المؤمنون، بمقاتلة المشركين، ويحقق النصر بكم ولكم، فإنه إذا قضى أمراً قال له: كُن فيكون كما أراد الله تعالى، فإن الله عَزَّ وجل قد قضى مسبقاً بأن إحدى الطائفتين لكم، فالأمر مقضي، والنتيجة متحققة كما أخبر قبل أن تقع وتصبح واقعاً مشاهداً كما قضى وأخبر ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾

وكذلك يريد الله تعالى أن يحقق أمراً آخر، بقطع شأفة قوة المشركين ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فهو سبحانه وتعالى يريد أن يجتث ويستأصل الكافرين بقتلهم. وقد قُتل في بدر صناديد قريش وكبرائها. وكان عدد قتلاهم سبعين قتيلا، وأُسر منهم سبعين رجلا، وقُتل من المسلمين أربعة عشر رجلاً.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٢٠)

ثم يبين الله تبارك وتعالى الحكمة من مراده ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ فأولها ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ فيظهر الحق ويحققه واقعاً مشاهداً ومحسوساً، وثانيها: ﴿ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ فيهدم الباطل ويفسده وهو الشرك، بهزيمة أهله، وإذلالهم بالقتل والأسر، وأن يكون ذلك عنوة ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ولو كره المشركون هذه الحقيقة، وجادلوا وناضلوا من أجل باطلهم. فإن في بيان كراهيتهم دلالة على عظيم حرصهم على بقاء ما هم عليه من الباطل، ومع ذلك أبطل الله تعالى باطلهم، وحقق الحق وأظهره وأبرزه، وقد سمى الله تعالى المشركين بالمجرمين ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ليدل على شناعة صنيعهم وعظيم إثمهم، وإن كان السياق متعلق بكفار قريش، إلا أن عموم لفظه يشمل عموم الكافرين، فإن الله تعالى محق الحق، بإظهار دينه والمؤمنين على من يعاديهم ويعادي دينه، ومبطل لباطل المجرمين على كرههم اجتثاث باطلهم، وتفانيهم في إبقائه. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: المجرمون هم المشركون، أو جميع طوائف الكفار[١] وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي: يُظهر دين الإسلام ويعزه ﴿ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ أي: الكفر. وإبطاله: إعدامه، كما أن إحقاق الحق إظهاره[٢]

ففي هذا البيان من الله تعالى ما يبين المفارقة بين مراد الطائفة من المؤمنين التي ما أرادت ذات الشوكة وأرادت العير، وبين مراد الله تعالى الذي أراد أن يحق الحق ويقطع شأفة الكافرين، ويحق الحق ويبطل الباطل، وأن مراد الله تعالى متحقق فيه المصلحة الراجحة، وأن مرادهم منتفي منه المصلحة التي في أعينهم وتقديرهم هي الراجحة، بما يفيد أن مرادهم مرجوح لعدم إدراكهم الحقيقة والنتيجة، وفي هذا الحدث كشف وبيان لقضاء الله تعالى وحكمته وقدرته وتقديره سبحانه وتعالى، مما يفيد المؤمن أن عليه الرضا بما يقدره الله تعالى، فإن الخير فيه.

ثم يُنوه اللهُ تعالى باستغاثة المؤمنين، عندما رأوا كثرة عدد عدوهم، وقلة عددهم، واستجابة الله تعالى لهم ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ والاستغاثة طلب الغوث بالإعانة ورفع ما اشتد بهم، وذلك بهزيمة عدوهم، ويفيد حرف ﴿ إِذْ ﴾ التذكير لهم بحالهم واشتداد كربهم، حين تستجيرون وتستنصرون بالله تعالى من عدوكم، فتطلبون من الله تعالى العون بأن ينصركم عليهم، وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٨٨)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٧/٢٣٥)

وعِدَّتِهِم، ونظر إلى أصحابه نيفاً على ثلاثمائة، فاستقبل القبلة، وجعل يدعو، ويقول (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعْبَد في الأرض)[١] ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ فاستجاب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ فأمد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ أي: متتابعين، بعضهم على إثر بعض، فيتبع بعضهم بعضا. قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما يتعلق بمشاركة الملائكة في المعركة: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ، وشُقَّ وجهه، كضربة السوط، فاخْضَرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة، فَقَتَلُوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين)[٢] وحيزوم هو اسم فَرَس الْمَلَك، وهو منادى، يا حيزوم. وقال صلى الله عليه وسلم يوم بدر (هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب)[٣]

ثم يبين الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن سبب الإخبار بالإمداد هو ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فبدأ السياق الكريم ببيان علة وسبب استجابته عَزَّ وجل لكم بإنزال الملائكة ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ﴾ مما يفيد كريم العناية والتلطف واللطف بكم، فإنه كان يكفيكم ضمان تحقق النصر، ولكن زيادة في تحقيق الطمأنينة جاءت البشارة بألف من الملائكة يقاتلون معكم، فما بعث الله تعالى الملائكة وإخباركم بهم إلا بشارة لكم، وأيضاً لتحصل لكم الطمأنينة، وإلا فإن الله تعالى ضامن لكم النصر بقدرته وإرادته من غير ذلك، لأن النصر من عنده عَزَّ وجل، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وقد أفاد النص الكريم حصر النصر من عنده تبارك وتعالى، لأن جملة ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا﴾ تفيد الحصر ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مما يستوجب عليكم سؤاله النصر عَزَّ وجل، وأن لا تهابوا وتكترثوا بالكثرة، بل

---

(١) مسلم، صحيح مسلم (١٥٦/٥) برقم (١٧٦٣) والطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠/١١)
(٢) مسلم، صحيح مسلم (١٣٨٣/٣-١٣٨٥) برقم (١٧٦٣)
(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٩٠/٣-٩١) برقم (٣٩٩٥)

اعتمدوا على الله تعالى، فلن تنتصروا بكثرتكم، ولن تُهزَمُوا لقلتكم، فإن الله تعالى قادر على اجتثاث الكفار بقدرته وقوته، ولكن اقتضت حكمته جَلَّ جلاله أن يكون لكل شيء سببا.

ثم ختم الله تعالى الآية ببيان عزته وحكمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فإنه عزيز، فلا يعجزه شيء، وعزيز لا يمتنع عليه شيء، وأنه الذي يقهر ولا يُقهر، وأما الحكيم فهو الذي اتصف بكمال الحكمة، والذي يضع الأمور موضعها، والمحكم للأشياء والأمور، وهو الحاكم، الذي لا معقب لحكمه، ولا حكم ولا تدبير أفضل من حكمه وتدبيره سبحانه وتعالى. مما يستوجب على المؤمن أن يدرك دلالات هذه الصفات العظيمة لله تعالى، فمن كان الله معه فلن يهزمه ولن يخذله أحد، وأن لله تعالى كمال العزة وكمال التدبير، مما يوجب الرضا بتدبير الله تعالى وتصريفه عَزَّ وجل.

وقد أوضح وبين قوله تعالى ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أن النصر عموماً من عند الله تعالى، من غير إنزال الملائكة، ولكن الله سبحانه وتعالى عاملهم بما يناسب الفطرة البشرية، التي تتفاعل مع المحسوس، وإلا فإن الله تعالى نصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء كما في سورة الحشر ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ فإن الأسباب كلها لله تعالى، فيصرفها كيف يشاء جَلَّ جلاله.

﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

ينتقل السياق إلى بيان إحسان الله تعالى على المؤمنين بما أفاض عليهم من الفضل والخير أثناء اشتداد الفزع واستغاثتهم به سبحانه وتعالى في غزوة بدر ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ

﴿ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ فاذكروا أن من فيض فضل الله تعالى عليكم أن تغشاكم النعاس ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ حيث ألقاه الله عَزَّ وجل بقدرته عليكم، ليكون ﴿أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾ فحقق الله تبارك وتعالى بالنعاس الأمن والطمأنينة من الخوف الذي أصابهم من كثرة عدوهم وتجهيزه، مع قلة عددهم، وقلة جاهزيتهم للحرب، فزال الرعب من قلوبهم بذلك النعاس.

وقد أفادت دلالة ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ﴾ الستر والتغطية، بما يفيد أن الله تعالى جعل النعاس ستر وتغطية، وكأنما النعاس كان بمثابة الحاجز والمانع والساتر عن كل ما كان يجول في خواطرهم من الخوف. مما يفيد ويبين أن لله تعالى الحكمة البالغة والقدرة الباهرة بأن جعل النعاس الذي هو النوم القليل ما يتحقق به الأمن والطمأنينة النفسية، حتى تطمئن النفوس وتستريح، لِتُقْبِل على المعركة بقوة ونشاط، إذ أن العادة في الإنسان المهموم هو ألا ينام، للخوف وللتفكير الذي يسيطر على ذهنه. ومن فوائد النعاس عموماً أنه يقوي وينشط الجسم، فكم من نِعَم الله تعالى تتوالى على الإنسان وهو عنها غافل، وكم من نقم يذودها عنه تبارك وتعالى وهو غافل عنها.

وقد نسب الله تعالى ذلك النعاس وتحقيق الأمنة والطمأنينة له عَزَّ وجل ﴿أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾ تبياناً بعنايته الخاصة ومعيته لهم، حتى يتحقق لهم كل ما يحقق الْبُشْرَى بالنصر، فإن دلالة البشرى من الله تعالى عظيمة القدر والمعاني والعطاء. وأما عما حصل لهم من النوم فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح(١) قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان. وقال قتادة رضي الله عنه: النعاس في الرأس، والنوم في القلب(٢)

ومن فيض كرم الله تعالى وآياته العظيمة أن أنزل عليهم المطر ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فقد أنزل الله تعالى عليهم بفضله مطراً، وسماه الله تعالى ﴿مَآءً﴾ بما سيكون عليه بعد نزوله من أثر، وبما سوف يُستعمل له، وهذا من دقائق البيان ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ فالأول: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ فيرفع به الأحداث، والثاني: ﴿وَيُذۡهِبَ

(١) أحمد، المسند (٢/٢٩٩) برقم (١٠٢٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٠٣)

عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ فيُذهب الله تعالى به وسوسة الشيطان، بل ومن دقة وصف أذى الشيطان أن سماه الله تعالى بالرجز، هو: الاضطراب، فيكون رجز الشيطان هو وسوسته التي تجلب الاضطراب من الخوف وغيره، حتى كان حال بعضهم كما قال تعالى ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ والثالث: ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أي: يثبتها في مواطن الحرب، بشجاعة القلب، وبسالة الأداء، واستشعار القوة والنصر، لأن مواطن الحرب مكاناً للفزع والخوف. وكلمة ﴿ وَلِيَرْبِطَ ﴾ تفيد توثيق الشيء الذي هو القلب، إمعاناً في التثبيت وإزالة الاضطراب والخوف، لينعدم أثره كلياً، فلا يبقى شيء من الخوف والهلع، والرابع: ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ أي: يثبت الله تعالى بهذا الماء أقدامكم في مواطن القتال.

وفي هذا البيان من الدقة والحظوة التي نالها المسلمون ما يبين عظيم الفضل الذي أنزله الله تعالى عليهم، حتى جعل من حضر غزوة بدر مغفور له، فقد قال صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[1] وجاء عنه كذلك قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عَزَّ وجل (اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم، فدمعت عينا عمر)[2]

والمتأمل في البيان القرآني الكريم يدرك قوة الله تعالى، إذ كيف سخر سبحانه وتعالى الملائكة تقاتل في صفوف المؤمنين، وجعل النعاس أمناً وشفاء وعلاجاً للقلوب، وطمأنينة للنفوس، بل تجاوزها ليكون أماناً وأمناً نفسياً، فتقوى بذلك العزائم ولأجساد. وجعل السماء جنداً بما أنزل الله تعالى من المطر، ليكون طهارة لهم من الأحداث والجنابات، ويُذْهِبَ عنهم وسوسة وتخذيل الشيطان وإرجافه، ويوثق قلوبهم به عن كل ما يضطرب بالقلب، ليصبح قوياً شجاعاً ومقداماً، لا يهاب كثرة العدو، ولا قوة عتاده، بل ويسخر الأرض لتكون جنداً في معركة بدر، وذلك بما حل فيها من ماء المطر، لِتُثَبِّت به الأقدام، وكأنه قوة ومرتكزاً لأقدام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنهم. بينما الماء الذي نزل منه على الأرض لم يكن للعدو فيه خاصية التثبيت، ليدرك المؤمن أن خصائص الأشياء تعمل بقدرة الله تعالى، فتكون خيراً لمن أراد الله تعالى له الخير، وتكون شراً لمن أراد له الشر، كمثل النار التي كانت برداً وسلاماً على نبي وخليل الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فكل شيء جند من جنود الله تعالى فيما سخره عَزَّ وجل. ليدرك المؤمن أن كل شيء هو

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٥٩/٤) برقم (٣٠٠٧)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٧٧/٥) برقم (٣٩٨٣)

جند من جنود الله تعالى، وليدرك قوة الله تعالى ورحمته وعنايته إذ أدركت واعتنت بقوم أعزتهم ونصرتهم، وخذلت عدوهم، مهما كانت قوة العدو. مما يربي في المؤمن الثقة بالله عَزَّ وجل والتوكل عليه سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بما أوحى به إلى الملائكة، والذي هو من النِّعَم الغيبة الخفية التي لو لم يخبر الله تعالى بها لما علمها عباده ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فوجه تبارك وتعالى خطاب الإخبار لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾ بما يفيد مزيد التكريم والعناية، بالرغم من أن الخبر متعلق بالجميع ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وفي هذا تكريم للمؤمنين مع نبيهم صلى الله عليه وسلم في نزول الملائكة، وتثبيتهم، كما أن من أوجه التكريم أنه سبحانه وتعالى زكاهم، وذلك بتسميتهم بالمؤمنين ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأعْظِم بها من تزكية ومدح وثناء من الله تعالى بهذه الصفة العظيمة، فَيُثْبِت لهم الإيمان.

وقد أوحى الله تعالى إلى ملائكته التي تقاتل مع المؤمنين أنه معهم بقوته وعلمه وقدرته وتدبيره سبحانه وتعالى ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ ومن كان الله تعالى معهم فلن يخيبوا ولن يخسروا أبداً، كما أن في هذا التنويه تكريم للملائكة ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بأنه معهم، ومن معية الله تعالى أنه يأمر الملائكة أن تقوم بتثبيت المؤمنين في المعركة، كما أن السياق في جملة ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عام، ليستوعب الكثير من أسباب التثبيت، والتي منها حضور الملائكة وتكثيرهم سواد جيش المسلمين، والقتال معهم، وتقوية عزائمهم، وتشجيعهم للبسالة في الحرب، فإن في القوة وفي سير المعركة التي كانت لصالح المؤمنين ما يثبت الفؤاد.

وقد تولى الله تعالى إلقاء الرعب في قلوب المشركين ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ سأرعب قلوب الكافرين، والرعب خوف واضطراب في القلب، ينعكس أثره على عزيمة المرعوب، فيوهنه ويخذله، ويستشعر الصغار والهزيمة والخوف والقتل، فهذا الرعب جند من جنود الله تعالى الخفية التي لو لم يذكرها الله تعالى لما عرفها المؤمنون. مما يفيد أن الرعب جند من جنود الله تعالى، وأنه لا يعلم جنود الله تعالى إلا هو عَزَّ وجل. ويقود هذا البيان المؤمنين نحو التوكل على الله تعالى أمام العوارض البشرية، بأن يلتجئ المؤمن إليه سبحانه وتعالى بالدعاء والتوكل، فإنه هو الذي ينصره على العوارض البشرية، بما يلقيه من الرعب في القلوب. مما يولد الشجاعة والتَّحَمُّل والصبر في مواجهة المشكلات التي تعترض الإنسان المؤمن. ومن عجائب قدرة الله تعالى إيجاد المفارقات بالأضداد، فالمؤمنون الخائفون ثبتت قلوبهم وأقدامهم، والكافرون المغرورون بكثرتهم وكثرة عتادهم خائفون مرعوبون، والقوي ضعيف، والضعيف قوي، والقليل يقتل ويبطش ويقطع أعناق وأرجل وأيدي الأكثر قوة وعتاداً، والقوي الكثير تنهار قواه وعزيمته، فينتصر القليل على الكثير،

ويعز الله تعالى القليل على الكثير، وتتغير مجريات الحرب عن الحقائق إلى آية من آيات الله تعالى الخارقة للسنن، فتكون حجة وبرهاناً لمن كان له قلب يعي به الحقائق الباهرة.

ويبين الله تعالى للمؤمنين مكان الضرب من الجسد، مع الأمر لهم بذلك ﴿ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: إن الله تعالى أمر بضرب رؤوس المشركين، وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم ﴿ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾ واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان: جمع بنانة، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين[١] ويعني ضرب الأعناق إتلاف وإهلاك المشرك بالكامل، كما أن في تعيين ضرب كل بنان ما يفيد إتلاف القوة الجسدية للكافر، التي يستعين بها على القتال.

ثم يشير تبارك وتعالى إلى علة وسبب هذا الضرب للمشركين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي: فارقوا وجانبوا أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فأصبحوا في شق، غير شق المؤمنين، بتركهم الإيمان وشريعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. والمشاقة تعني المفارقة مع المناوأة والمكايدة والمعاداة، ولفظة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة لما أصاب المشركين من الهزيمة والقتل والجرح والأسر، لتفيد علة وسبب ما أصاب المشركين من التنكيل والرعب والقتل والجرح والأسر والذلة والمهانة.

ثم يبين الله تعال حال كل من يناوئ ويفارق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ فمن يعدل ويفارق ويجانب منهج الله تعالى، فيناؤوه ويعاديه فإن عذاب الله تعالى شديد عليه، وهذا حكم عام لكل من يشاقق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الذي أصابهم وحل بهم من القتل والأسر والجرح والهزيمة والذلة والمهانة هو نتيجة مشاقتهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فإن هذا عذاب شديد من الله تعالى في الدنيا، فكذلك عذاب الآخرة الذي هو النار وبئس المصير.

وبعد بيان القاعدة العامة فيمن يشاقق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، يذكر وينوه سبحانه وتعالى بما حل عليهم من العذاب بأسلوب التوبيخ، ليعتبر غيرهم بهم ﴿ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ ﴾ فذوقوا العذاب الذي أصابكم في الدنيا، وكلمة ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ إشارة إلى شدة العذاب وما أصابهم، لأن الذوق أقوى حواس

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧١/١١)

الشعور ، فباشروا الإحساس بالعذاب كما تباشرون تذوق الأشياء بحاسة الذوق. فكأن شدة العذاب وقوته كشدة التأثر والتأثير التي تكون بحاسة اللسان والفم. فنسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة.

ثم يؤكد عزَّ وجل ما للكافرين في الآخرة من عذاب النار ﴿ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ وأن لجميع الكفرة عذاب النار في الآخرة. وفي ذلك تفصيل دقيق للعذاب ولعلة وقوعه، ليكون توبيخاً وإنذاراً لهم، وموعظة لغيرهم. فقد أفاد اسم الإشارة من قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ بيان تعظيم ما أصابكم أيها المشركون، فيعطي التفظيع للمصاب الذي أصابهم، والتحذير من التمادي في الكفر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يخاطب الله تعالى المؤمنين موجهاً وآمراً لهم بما يجب أن يكونوا عليه حال مواجهتهم للكافرين عند التقاء الصفوف ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فبدأ سبحانه وتعالى الخطاب بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ الذي يفيد شد ولفت الانتباه لأمر عظيم، يلزمكم أن تُعطوه وتُولوه اهتمامكم وسمعكم والائتمار به، وقد ناداهم الله تعالى بصفة الإيمان، فسماهم بالمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ مما يفيد تزكيتهم من الله تعالى باستجابتهم للإيمان، والتي توجب عليكم الائتمار بما آمركم به ربكم عزَّ في علاه، فيا من آمنتم بالله ورسوله وبما جاءكم من الحق ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ فإذا التقيتم بالكافرين في صفوف القتال ﴿ زَحْفًا ﴾ أي: تدانيتم وتقاربتم في القتال مع الكافرين ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ فيجب عليكم أن لا تفروا وتتركوا أصحابكم، وتعطوا العدو ظهوركم، وهو ما يعني أن لا يحصل منكم الفرار. مما يفيد أنه يجب عليكم الثبات والصبر، مع لزوم ووجوب الثبات، ويحرم عليكم الفرار، بأن تُولوهم الأدبار.

ثم يبين سبحانه وتعالى الاحترازات التي تخرج عن صفة الفرار وتَوْلِيَتِهُمُ الأدبار، مبتدئاً التوجيه الكريم بالتحذير قبل ذكرها ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾ أي: فمن يولهم دبره حال ووقت اللقاء، بما يفيد أن هناك عقوبة يتم استئنافها بعد ذكر الاحترازات، قد تَرَتَّبَت على الإدبار في صفوف القتال، حيث ذكر الله تعالى قبل عقوبة ذلك حالات الاستثناء من العقوبة، وفي هذا شد الانتباه، والاستغراق في المعاني والدلالات والمقاصد ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن ﴿مُتَحَرِّفًا ﴾ أي: يفر بين يدي قرنه أي عدوه، مكيدة، ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، نص عليه سعيد بن جبير والسدي، وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أي: فر من ههنا إلى فيئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك حتى لوكان في سرية ففر منها إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة[١]

ثم بعد ذكر الاحترازات الاستثنائية يقول الله تعالى عن عقوبة الفار ممن لا ينطبق عليه الاستثناء ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فقد رجع الفار من الزحف بعقوبة الغضب من الله تعالى ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وأما العقوبة الثاني: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ﴾ ومصيره الذي يصير إليه في معاده يوم القيامة جهنم، ثم أوضح تبارك وتعالى صفة هذا المأوى بأقصى أسلوب ومعاني الذم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وبئس الموضع الذي يصير إليه. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في حكم هذه الآية الكريمة: أن حكمها محكم، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين، إلا لتحرف لقتال، أو التحيز إلى فئة من المؤمنين[٢] وفي هذا ما يُعلِم المؤمنين الثبات، ومقاومة الاضطراب، وما يوسوس به الشيطان، وأن يتجاسر على نفسه، ويستعين بالله تعالى، متوكلاً عليه، ويمني نفسه بحسن الخاتمة والجنة، وأن في هذا التجاسر ما يخيف العدو ويخذله، ويجعل الخوف يدب في نفوسهم، لما يرونه من شجاعة وبسالة المسلمين، كما أن في هذا طاعة لله تعالى، ووسيلة لتحقيق الظفر والنصر. وأما فيما وعد الله تعالى به لمن فر يوم الزحف ما يفيد أهمية الحزم والجزم بالجزاء.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٠٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٨١)

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان الفرق بين السبب والمسبب في نتيجة المعركة يوم بدر ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي بل هو الذي أظفركم عليهم[١] فقد نسب الله تعالى فعل القتل لذاته الكريمة ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فإن الله تعالى هو الذي تولى نصر المؤمنين، وهو الذي ساق المشركين للمؤمنين، وتولى تمكينهم من المشركين من كل وجه. فكما أن الرازق هو الله تعالى، فكذلك هو المميت، وكما أنه هو الذي يهيئ أسباب الرزق والحياة والعافية والشفاء، فكذلك هو الذي يهيئ أسباب النصر، ويجعل السبب يصيب مكانه ويحقق مراده بأمره وقدرته عَزَّ وجل. ليدرك المؤمن أن تحقيق التوفيق والنصر والنجاح والفوز هو من عند الله تعالى، وإنما المؤمن يعمل الأسباب، وهذا الخطاب عام لجميع المؤمنين ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ مما يلزم المؤمن أن ينسب الفضل لله تعالى، فيقول: انتصرت بقدرة الله تعالى، وحصلت على كذا بفضل الله تعالى، وربحت وفزت ونجحت بفضل الله تعالى، فهو المتفضل عَزَّ وجل، ولولا فضله لما تحقق ما يرجوه، ولما كف عنه ما يخافه، فيقول : دفعه الله تعالى عني بفضله وقدرته ورحمته.

وأما في موضوع الرمي فخص به رسوله صلى الله عليه وسلم، وخاطبه بشأنه ومضمونه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أنه لَمَّا دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال (شاهت الوجوه) فدخلت في أعينهم كُلِّهم، وأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلونهم ويأسرونهم. وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله صلى الله عليه وسلم حثوة من التراب عليهم، وأنزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]

ففي النص الكريم نفي وإثبات ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ فنفى وأثبت الرمي لرسوله صلى الله عليه وسلم في آن واحد، وهي قوة بيانية وبلاغية عظيمة، فقد حقق فيها سبحانه وتعالى مسألة السبب، ووقوع أثره، ليصحح العقائد ويبني العقيدة الصحيحة في النفوس، ويصحح بذلك الأفكار والأفهام، فيما يقوم به الإنسان

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٧/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨٤/١١-٨٦)

من أعمال ونشاط، فأثبت للنبي صلى الله عليه وسلم فعل الرمي، وهي قبضة من تراب قبضها صلى الله عليه وسلم من الأرض ورمى بها في وجوه القوم، وهو السبب، وأما وقوع أثره وتأثيره وتكثيره فإن الله تعالى هو الذي تولى ذلك، ودَبَّرَهُ ودَبَّر له وتولَّى أمره، فالرمية تسير بقدر الله تعالى وبتوجيهه، فيصيب بها من شاء وكيف يشاء، فلو أن الله تعالى ما شاء الإصابة لما كانت، وأخطأت الطريق. فكم من رامي لا تصيب رميته مراده، وكم من الحوادث يفوت وينجو منها من تحققت إصابتها فيه، وبالرغم من ذلك أنجاه الله تعالى بقدرته. وكم من إصابة يحصل منها من الأثر ما لا يتوقعه من عاين الحدث. فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يوم بدر، فقال (يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً) فقال له جبريل عليه السلام: خذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين. وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر، سمعنا صوتاً وقع من السماء، كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الرمية فانهزمنا[١] وكان حكيم بن حزام يوم بدر مع المشركين على شركه، وأسلم عام الفتح. فمن ذلك يتبين أن الله تعالى أثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرمي ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ونفى عنه صلى الله عليه وسلم الرمي، وأثبته لنفسه الكريمة سبحانه وتعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فاثبت لنفسه عَزَّ وجل الرمي الذي أوصل إلى أعينهم جميعاً ما دخل فيها. فالذي أخذه صلى الله عليه وسلم من الأرض هو قبضة من تراب، والقبضة لا تبلغ أن تملأ عيون ذلك الجيش الكثير، وإنما الذي تولى ذلك هو الله تعالى، سواء من حيث تكثيره ومن حيث فعله، ومن حيث أثره. فإن الله تعالى هو الذي أظفرك وأيدك، وحقق مرادك من الرمي. وعن ابن إسحاق: لم يكن ذلك برميتك، لولا جعل الله فيها من نصرك، وما ألقى في صدور عدوك منها حين هزمهم[٢]

ومن الجمال البياني تكرار كلمة الرمي في الجملة ثلاث مرات﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ومع ذلك كان لتكرارها جمالاً صوتياً، وجمالاً في بناء الجملة؛ مع عذوبة سياقها، بالرغم من أن الفاصل بين الكلمة الأولى والثانية حرف ﴿إِذْ﴾ وبين الثانية والثالثة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ ومن الفوائد أن الكلمة الأولى للرمي ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ فيها نفي الإصابة، وما أصبت أنت برميتك أولئك الحشد الكبير من الجيش، والثانية ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات حصول فعل الرمي من النبي صلى الله عليه وسلم، لبيان إثبات فعل السبب

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٨٤-٨٦)

(٢) المرجع السابق (١١/٨٦-٨٧)

وعدم نفي وقوعه، والثالثة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ إثبات فعل الإصابة مع حصر تحققها بأنها من فعل الله تعالى، فهو الذي جعل فعل السبب من الرمي يحقق الهدف، ومن ذلك توزيع وانتشار الرمل، وتكثيره، وتوجهه للهدف، وإصابته المراد بالدقة المتناهية، والكيفية الناجزة، والتي تَحقق بها الهدف وحصلت بها الهزيمة. فأي بيان إعجازي أبلغ وأقدر من هذا البيان الرباني. فليس هناك بيان يستوفي تصوير وبيان المشهد أفضل وأجمل بلاغة وإعجازاً من كلام رب العالمين.

ثم يبين الله تعالى المزيد من إنعامه وفضله وإحسانه عَزَّ وجل على المؤمنين من النصر والتمكين ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: لِيُعَرِّف المؤمنين بعظيم إنعامه عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، وليشكروا بذلك نعمته. أي: لينعم على المؤمنين إنعاماً جليلاً. ومعنى ليبلي هنا، أي: لينعم على المؤمنين منه سبحانه وتعالى إنعاماً قد اتصف بالحسن والجمال والجميل.

ثم ذكر تبارك وتعالى صفتين من صفاته العظيمة الجليلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ووردت على وجه العموم، فاستوفت بذلك دلالة خاصة ودلالة عامة، فالدلالة الخاصة المتعلقة بالسياق: فإن الله تعالى سميع بما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم وتوسله ربه تبارك وتعالى، وعليم بواقعكم وواقع عدوكم وما دعوتم به، وما رجوتموه من ربكم، فلم يخف عليه شيء من الأمر. وأما الدلالة العامة: فإن الله تعالى يسمع ويعلم كل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، مما يُعَلِّم المسلم أن من صفات الله تعالى كمال السمع والعلم، ويُعَلِّمُه فهم ذلك كيف يتعامل مع ربه عَزَّ وجل، الذي يسمعه ويسمع دعاءه وأقواله، ويعلم عنه كل شيء، فلا تخفى من حاله خافية عليه سبحانه عَزَّ وجل.

ومن دلالة قوله تعالى ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أنها تفيد المبالغة في الصفة وكمالها، وكمال تحققها، ومبينة لكثرة ما يسمع ويعلم في وقت واحد سبحانه وتعالى، فلا يمنع سماع شيء عن سماع غيره، ولا العلم بالشيء حال حدوثه عن العلم بغيره مما يحدث في نفس الوقت، وأنها صفة ملازمة الله عَزَّ وجل.

ثم يبشر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بما قضاه على الكافرين ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبدأ النص الكريم باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ والذي يعني: الأمر ذلكم الذي ذكرناه وهو النصر من الله لكم، وهو البلاء الحسن، فقد ذكر الزمخشري رحمه الله تعالى في دلالتها: أنها إشارة إلى البلاء الحسن، يعني الغرض إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين[1] فهذه الآية الكريمة كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى: بشارة أخرى مع ما حصل من النصر، أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِف كيد الكافرين فيما يُستقبل،

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٠٥)

مصغرٌ أمرهم، وأنهم كل مآلهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة[١] فكيد الكافرين الذي هو مكرهم مُوهن من الله تعالى، فإن الله تعالى مُضْعِفُه ومُوهنه حتى لا تكون لهم قوة يتسلطون بها. وسياق الآية عام، ليفد ما استُقبِل من أمرهم، وأما باعتبار واقعة غزوة بدر، فقد تحقق الوهن للكافرين، وهذا الحكم معجزة من الله تعالى، فيدرك المؤمن حقيقتها وتحققها عبر التاريخ، وأن ما يصيب المسلمين هو من أنفسهم، وبسبب ذواتهم.

ثم يُظهر ويبين سبحانه وتعالى في سياق هذه الآية الكريمة التالية بديع البيان في دلالتها، إذ يبين الله تعالى أن قدرته وإحكامه وتحكمه في الأمر هو كما يشاء ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: إنها خطاب للكفار تهكما بهم، والمعنى: إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر ﴿ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر، فتهكم الله بهم، وسَمَّى ما حل بهم من الهلاك نصراً، ومعنى بقية الآية على هذا القول: ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ ﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَهُوَ ﴾ أي: الانتهاء ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ ﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿ نَعُدْ ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم، ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم في يوم بدر ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ أي جماعتكم ﴿ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أي: لن تغني عنكم في حال من الأحوال ولو في حال كثرتها، ثم قال تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) ومن كان الله معه فهو المنصور، ومن كان الله عليه فهو المخذول[٢]

وفي قوله تعالى للمشركين ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ هو على سبيل التهكم، فإن طلبتم النصر، فقد جاءكم النصر والفتح الذي تستحقونه، وسماه الله تعالى فتحاً، إمعاناً للمبالغة في التهكم بهزيمتهم، إذ يطلبون النصر من الله تعالى وهم يحادون ربهم تبارك وتعالى، ويعادون رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: كان المشركون حين خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٨/٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٩٧/٢)

من مكة، أخذوا بأستار الكعبة، واستنصروا الله، وقالوا اللهم انصر أعز الجندين، وأكْرَم الفئتين، وخير القبيلتين(١)

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ ﴾ ما يطمئن المؤمنين ويؤكد لهم أن الله تعالى معهم على عدوهم إن عاد عدوهم للقتال، وفيه تحذير للمشركين من معاودة مقاتلتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. وفي قوله تعالى ﴿ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ ﴾ بيان ما قضى الله تعالى به، من أنه لن ينفعكم أيها المشركون جمعكم مهما بلغ من الكثرة، ليفيد المبالغة في تحقق هزيمتهم، وأن الكثرة لن تجديهم وتنفعهم، بما يفيد ويؤكد الجزم بتحقق انتصار رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ومن دلائل ذلك غزوة الأحزاب.

وفي قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ما يبين فضل المؤمنين، ومنزلتهم، بأن جعل الله تعالى معيته لهم، وفي هذا بيان بأن انتصار المؤمنين في بدر وفي غيرها هو بفضل الله تعالى، وكذلك تأكيد لما وعد الله تعالى بأنه موهن كيد الكافرين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ
كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا
يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ
ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ
أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ
ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٩٢)

انتقل السياق الكريم إلى توجيه المؤمنين بأمر، قد ابتدأه سبحانه وتعالى بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ والذي يحمل في دلالته شد الانتباه، ولفت النظر إلى أهمية ما ناداهم إليه، وكذلك لزوم إرعاء السمع، خاصة وأن مصدر الخطاب من الله تعالى، وقد ناداهم سبحانه وتعالى بخصيصة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ والتي تحمل التزكية لهم بهذه الخصيصة العظيمة، والتشجيع لهم بأن خصيصة الإيمان توجب عليكم تمام الطاعة، وكمال الاستجابة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وكذلك ما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم يأمر تبارك وتعالى بالطاعة ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ فيا من آمنتم بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم يجب عليكم التزام طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنكم لستم كغيركم.

ثم أعقب الأمر بالطاعة النهي عن أن يفعلوا ما هو ضد المأمورين به ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ فبعد أن رأيتم بأعينكم وبقلوبكم ما تحقق لكم من الانتصار الذي ظهرت لكم فيه معجزات النصر على من هم ثلاثة أضعافكم، وتبين لكم ثمرة طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فعليكم بالثبات على طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا تتولوا عنه، بعدما حصل لكم العلم بما تؤمرون به وتُنهون عنه.

فأعقب الأمر بالطاعة النهي عن أن يفعلوا ما هو ضد المأمورين به. وقد قيد سبحانه وتعالى النهي بتحقق الاستماع الذي يفيد العلم بما دعاكم له، فليس هناك ثمة عذر عن عدم الاستجابة لرسوله صلى الله عليه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

وسلم، والذي تمثل طاعته طاعة لله تعالى. لأن التَّولي حال الاستماع يفيد الإصرار على المعصية، مع التجاهل الذي يمثله حال من وصفهم في الآية التالية لها ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

وقد جاء النص الكريم كقاعدة عملية للمؤمنين مع ربهم تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فأفاد هذا التوجيه الكريم من الله العزيز الرحمن الرحيم وجوب الطاعة والالتزام بعد معرفة الحكم، وسواء في عهده صلى الله عليه وسلم أو لمن بعدهم إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. وأنه لا يسع المؤمن بعد معرفة الحكم والعلم به أن يتولى عنه. والتولي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء، وقد يكون بعدم الائتمار بالأمر أو النهي. فجمع النص الكريم ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ جميع حالات التولي، مما يعطي عمقاً دقيقاً لموقع اللفظة في نسق السياق. وليظهر عظيم الإعجاز البلاغي في البيان الكريم.

ومن فوائد البيان الكريم: لطف التوجيه، إذ نادى تبارك وتعالى المؤمنين بصفة الإيمان من أجل أن يأمرهم بالطاعة، وينهاهم عن المعصية، ليعطي درساً في منهجية التعامل فيما بين المؤمنين: فإن من أخلاق ولطف التعامل بين العباد فيما بينهم أن يكون التوجيه مكللاً ومحفوفاً ومُؤطَّراً بالتكريم حين يكون من الأعلى للادني، فإذا كان الله تعالى يخاطب عبيده بهذا التكريم، فإن العباد أحوج ما يكونون إليه فيما بينهم.

وفي حال ارتباط الآية الكريمة بسياق ما قبلها، فإن فيه ما يفيد ويبين أنه بعد أن رأيتم بأعينكم وبقلوبكم ما تحقق لكم من الانتصار الذي ظهرت لكم فيه معجزات النصر على من هم ثلاثة أضعافكم، وتبين لكم ثمرة طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فعليكم بالثبات على طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا تتولوا عنه، بعدما حصل لكم العلم بما تؤمرون به وتُنهون عنه.

ثم يضرب الله تعالى للمؤمنين مثلاً لتقريب المعنى، وتبشيع صورة التولي عن أمره ونهيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ وفي هذا تحذير من التشبه بالذين ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وهي صفة تجمع كل من قال بمثل ذلك من المشركين ومن المنافقين، وكذلك تجمع مسلك من كان قبلهم مع أنبيائهم، كقول بعض قوم موسى لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام، كما هو في سورة البقرة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ فاستوفت هذه الصفة كل من اتصف من المشركين والمنافقين واليهود، وغيرهم، فقد أثبت هؤلاء لأنفسهم السمع والفهم، وإدراك المراد، حيث ﴿قَالُواْ

﴿سَمِعْنَا﴾ ولكن حالهم هو حال من لم يسمع ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فكأنهم لم يسمعوا شيئاً مما سمعوا، مما يفيد عدم الاهتمام والاكتراث والتلهي عنه، والانشغال بغيره عنه، وكأن ذلك لا يعنيهم في شيء، فإن حال هؤلاء في شرهم وشر ما جنوا على أنفسهم، كمثل الدواب. ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فإن شر ما دب على الأرض من الحيوان في ميزان الله تعالى هم الموصوفون بصفة ﴿ٱلصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون، لعجزهم عن السمع، فلا ينتفعون بما يسمعون. والصفة الثانية: ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ وهم الذين لا يتكلمون بسبب عجزهم عن الكلام، فلا يستطيع أن يتحدث عن مقصوده ومراده، والصفة الثالثة: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ وهم الذين يأتون ما يضرهم، ويصدون عَمَّا ينفعهم. فشأن هؤلاء هو شأن من لا ينتفع بما يسمع، ولا يتكلم ليسأل عما ينفعه، وبالتالي يذهب لما يضره ويصر عليه، ويترك ما ينفعه.

ثم يبين الله تعالى سابق علمه بهؤلاء الذين يسمعون الحق ويتعاملون معه وكأنهم لم يسمعوا ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فلو علم الله تعالى فيهم صدقاً ورغبة في الخير، لرزقهم الإدراك والفهم، والاستجابة، ولكن حتى لو حقق لهم السمع ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ فحقق ذلك لهم، ثم عقلوا ما سمعوا ﴿لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لتولوا عَمَّا سمعوا من الحق بالإعراض والتكذيب، وذلك لمعاندتهم، وعدم رغبتهم في الهداية وقبول الحق، فالمانع لهم متجذر فيهم عناداً وكبراً، وليس المانع هو من الأسباب المانعة، بعدم الفهم ولاستماع والإدراك، بل عناداً وكفراً بالحق، مع تمام وكمال تحقق العلم به، بدليل أنهم لم يقبلوا وينتفعوا بما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ومما يتلوه من القرآن العظيم، ومن النصح والوعظ الذي وعظهم به عليه الصلاة والسلام، فاستجابتهم متوقفة بسبب العناد والكبر، لا بسبب الجهل، مما يدل على انتفاء الخير من أنفسهم.

وجاء وصف طريقة تعاملهم بوصفين، الأول: التولي ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ وهو الانصراف والبعد، وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء، فانصرافهم هو انصراف قلب، وانصراف إصغاء، وانصرف أجسام، وانصراف عناد وتكبر، لعدم الائتمار بالأمر والنهي. والصفة الثانية: الإعراض ﴿لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: انحازوا نحو طرف الكفر. فتوليهم عن الحق هو تولي إعراض وممانعة، وانحياز للكفر. ففي تضافر الدلالتان ما يدل على شدة وقوة الانحياز عن شق وجهة الإيمان ومجانبته، إلى ناحية الكفر، مع الانجذاب إليه بقوة، والنفور عن الإيمان بقوة، مما يدل على أن الذي غلب في نفوسهم هو الشر والباطل على ما سمعوا وعرفوا من الحق. وفي هذا البيان ما يبين أن الله تعالى يعامل العبد بجنس ما يتعامل به العبد مع دين الله تعالى، فمن تولى معرضاً كارهاً للدين،

تركه سبحانه وتعالى. ومن أقبل على دين الله تعالى أقبل الله عليه بالتوفيق والهداية والتثبيت، وقد جاء في الحديث القدسي (وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[١] كما أفادت الآية الكريمة: أن علم الله تعال بأحوال العباد سابق لوقوع الحال منهم، بل قبل أن يخلقهم، فهو عليم بما في قلوب العباد وبما هي عليه من إقبال وإدبار. فاللهم وفقنا واهدينا وأصلحنا واقبلنا في جنابك بكرمك وجودك يا رب العالمين، ولا تجعلنا من المعرضين عنك وعن كتابك وعن رسولك محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عندك.

ثم يتكرر النداء من الله تعالى لعباده المؤمنين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ فيا من آمنتم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبما جاءكم به من عند ربه عَزَّ في علاه ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ ﴾ امتثلوا وأطيعوا، وفي النداء السابق كان الأمر بالطاعة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ بما يعني أن من لوازم الطاعة الاستجابة بالامتثال ﴿ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ مما يفيد التأكيد مع بيان أن الذي تستجيبون له فيه حياتكم الحقيقية، إذ قرن الاستجابة بالحياة ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ فشملت ﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ أي: فإن كل ما يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، من القرآن والسنة، وعموم شريعة الإسلام فيها وبها حياتكم الحقيقية من السعادة والنجاة والفوز في الدنيا والآخرة.

وقد جعل الله تبارك وتعالى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حياة، بل ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ لِمَا يحقق فيكم الحياة الحقيقية، مما يفيد أنكم قبل إسلامكم واستجابتكم لم تكونوا في حياة حقيقة، تعرفون وتستطعمون فيها معنى الحياة، فمشاعركم ليست بالمشاعر الصحيحة، أما مشاعر المؤمن القائم بعمل الصالحات، فإنها هي المشاعر الصحيحة التي استصحبت الحياة الحقيقية، التي يتذوق فيها حلاوة وحياة الإيمان، مما يدل على أن الكفر موت للقلب، وقد انعدمت فيها حقيقة الحياة. مما يكشف بأن علوم الشرعية هي مصدر الحياة، وأن العمل بمقتضاها هي حقيقة الحياة المستمرة في الدنيا والآخرة. فإن دلالة ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ معبرة عن كل ما يفيد الانتعاش والنمو والزيادة والقوة، مع كمال قدرة الإحساس بكل ما في الكون وما يدور فيه، وبكل أحداثه، وما يحدث في المجتمع أو بما يحدث لخاصة المؤمن في نفسه، فقلب المؤمن هو القلب الحي، الذي يتألم من جراحات المعاصي، أما غير المؤمن فلا يتألم من حدوث المعاصي، بل يلتذ بها، ويتلذذ برؤيتها، ثم يتألم منها.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٧/٣٨٤-٣٨٥) برقم (٧٤٠٥)

وقد جاء الأمر بالاستجابة الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم مجملاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ليشمل عموم وكمال الاستجابة، بينما خص وأفرد رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يدعوا العباد إليه ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ لأنه هو المبلغ عن الله تعالى، وهو الذي معه ما أنزله الله تعالى لعباده، وكذلك لبيان أن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم هي طاعة لله تعالى، وأن القرآن والسنة النبوية هي مصدر الحياة، ولا يغني أحدهما عن الآخر.

ثم يخبر الله تعالى عباده عن كمال قدرته، ليتحرزوا عن الأسباب التي قد تميت القلب ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ ودلالة ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ أمر يُوجب العلم بأن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه، مما يستدعي التأمل، في أسباب ذلك، وتحقيق الخوف الذي يوجب الطاعة، والتحرز من الغفلة والمعاصي. وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)[1] وفي هذا النص الكريم والحديث الشريف ما يُعَلِّم المؤمن بالمزيد من قدرة الله تعالى، وأن لا يغتر بنفسه وحوله وقوته، بل يعمد ويلهج بالدعاء إلى الله تعالى بأن يصرف قلبه على طاعته، مما يحقق للمؤمن كمال الذل والافتقار إلى الله تعالى.

ومن الفوائد أنه ذُكِرَ في دلالة الآية الكريمة عشرة أقوال، تجتمع في قوة ونفاد قدرة الله تعالى، ومن غير تضاد بين معانيها ودلالاتها، وقد جمع تلك الأقوال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى، وهي: أي: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، وقيل: يحول بين المؤمن وبين معصيته، وبين الكافر وبين طاعته، وقيل: يحول بين المرء وقلبه حتى لا يتركه يعقل، قال ابن الأنباري: المعنى: يحول بين المرء وعقله، فبادروا الأعمال، فإنكم لا تأمنون زوال العقول، فتحصلون على ما قدمتم. وقيل: المعنى: هو قريب من المرء، لا يخفى عليه شيء من سره، وقيل يحول بين المرء وقلبه، فلا يستطيع إيماناً ولا كفراً إلا بإذنه سبحانه وتعالى. وقيل: يحول بين المرء وبين هواه. وقيل: يحول بين المرء وبين ما يتمنى بقلبه من طول العمر والنصر، وغيره. وقيل: يحول بين المرء وقلبه بعلمه، فلا يضمر العبد شيئاً في نفسه إلا والله عالم به، لا يقدر على تغييبه عنه. وقيل: يحول بين ما يوقعه في قلبه من خوف أو أمن، فيأمن بعد خوفه، ويخاف بعد أمنه. وحكى الزجاج: أنهم لما فكروا في

(1) مسلم، صيحي مسلم (٤/٢٠٤٥) برقم (٢٦٥٤)

كثرة عدوهم وقلة عددهم، فدخل الخوف قلوبهم، أعلمهم الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه، بأن يبدله بالخوف الأمن، ويبدل عدوه بالقوة الضعف، وقد أعلمتْ هذه الآية أن الله تعالى هو المقلب للقلوب، المتصرف فيها[١]

وتنوع هذه الدلالات يدل على رحابة النص في الآية الكريمة بما فاض منها من الدلالات التي استوعبت ما أعطاه النص الكريم من المعطيات التي لا تعارض ولا تضاد بينها، بل في تناسق من التجانس، فقدرة الله تعالى تستوعب جميع تلك الأحوال. مما يدل على بلاغة البيان القرآني الكريم، وإعجاز نظمه وكثرة فوائد نصوص آياته العظيمة.

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة بالإخبار عن المآل ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فأنتم إليه عائدون ومجزيون كل بعمله، مما يفيد التنبيه والتحذير، ووجوب الاستعداد للجزاء والحساب، وتحصيل كل إنسان لما قدم من خير أو شر.

ثم يخبر الله تعالى عباده بأمرٍ عظيم، ويحذرهم فيه من فتنة لا تخص الذين ظلموا فقط ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ فاتقوا الفتنة التي تتعدى الظالم وتتجاوزه إلى غيره، فلا تكن خاصة مخصوصة على الظالمين من أهل المعاصي والسيئات منكم أيها المؤمنون، بل تتجاوزهم لتعم الجميع، مما يهيب بالجميع إلى التناصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يتم استصلاح الظالمين، فينتقلوا ويرتقوا بأنفسهم إلى الصالحين. وفي هذا تحذير من إقرار المنكر بعدم النهي عنه، وتحذير لمن كان على معصية ثم يصر عليها، وتنبيه بأن الله تعالى سيأخذ الجميع إن لم يأتمروا بما أمرهم به، وينتهوا عَمَّا نُهاهم عنه، وفي هذا التوجيه الكريم ما يفيد أهمية توعية الصالح للظالم، وذلك لدلالة النص الكريم على ذلك، وكذلك وجوب تقبل المنصوح لمن ينصحه ولنصيحته، وأن يقوم الصالح بواجب النصح والإصلاح تجاه الظالم. ليصبح هناك تقبل متبادل بين الطرفين، فيتحقق الهدف والمطلوب. فهو نص وتوجيه عظيم الدلالة وعظيم الفائدة، إذ يتحقق به الخير العظيم للمؤمنين أجمعين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: في تفسير هذه الآية: أمر الله تعالى المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم اللهُ بالعذاب، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى بعد إيراده هذا: وهذا تفسير حسن جداً[٢] فدخول الصالحين مع الظالمين في العذاب لعلة سكوتهم عن الظالمين، فلم يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٣١/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣١١/٢)

ثم يحذر الله تعالى من عقوبته ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فجاء التحذير من خلال بيان قوة عذابه وشدته إذا أصاب به من أراد سبحانه وتعالى، فإن معاقبة الله تعالى شديدة العذاب، مما يفيد التحذير والوقاية بلزوم الطاعة.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى تذكير المؤمنين بما امتن به ربهم عليهم من الإحسان العظيم، بعد أن كانوا مستضعفين، بما يعرفهم بنعمة الله تعالى، وبما يشحذ الهمم نحو الاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، مما يبين العلاقة بين هذه الآية الكريمة وما قبلها ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فبدأ التوجيه الكريم لهم بالتنبيه والتذكير بما كانوا عليه من قلة العدد، وما كانوا فيه من القهر والخوف.

ومن دقة البيان أن دلالة ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ تفيد أن الاستضعاف كان واقع عليهم من غيرهم، لا من أنفسهم، فإنهم لا يشعرون بمهانة في ذواتهم، بل في ثباتهم ما يدل على اعتزازهم بدينهم، وهذه من دقائق البيان القرآني الكريم في الوصف والتحليل ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مستضعفون من غيركم لكم، فاذكروا حال ما كنتم عليه في مكة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم في مكة، قليلين مستخفين، مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس[١] ومن الذين عذبهم المشركون عذاباً شديداً: بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وصهيب بن سنان الرومي، رضي الله عنهم أجمعين.

وقد وردت كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ بلفظ العموم لتفيد أينما اتجهتم وكنتم في الأرض، فإنكم تجدون الاستضعاف، فلا تجدون من يرفعه عنكم. ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ الخطف هو الأخذ بسرعة، وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن المراد بالناس مشركو قريش، وقيل فارس والروم، وقيل: أنهم المشركون الذين حضروا بدرا[٢] ولا شك أن كل ذلك كان واقعاً، والأخص من تلك الأقوال: مشركو قريش، وأما باعتبار الأرض عموماً فإنه يستوعب تلك الأقوال الثلاثة. ودلالة معنى ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ تدل على قوة شوكة العدو، وشدة حال خوف المسلمين، حتى تجاوز خوفهم من قدرة عدوهم على أخذهم خطفاً، وكلمة ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣١٢/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٣٣/٣)

تدل على السرعة والقدرة والقوة من غير مشقة يكترث منها العدو، مع ضعف وهوان قدرة الخائف من الخطف ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ مما يصور حال قلوب المؤمنين آنذاك، بأنهم في خوف شديد، مع قوة شوكة عدوهم، وأنها ظاهرة عليهم، وجاء ذكر عدوهم بلفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ ليفيد العموم، فيخافون من أقوامهم ومن الموالين لهم، ويخافون أن يذهبوا لغيرهم فيجدون منهم مثل ذلك، كالطرد والأذى، فلا أمان لهم في الأرض أينما اتجهوا، فلا أمان لهم من جهة قومهم، ولا أمان لهم عند غيرهم. فليس هناك ملاذ يمكن أن يفرون إليه. فجاء البيان القرآني الكريم مصوراً لحالهم وحال أقوامهم تصويراً دقيقاً. مما يبين الإعجاز البلاغي والبياني للقرآن الكريم.

وعند هذه الحال التي وصلوا إليها يقررهم الله تعالى بما أفاض عليهم من الإحسان والعزة والكرامة وقوة الشوكة، والنصر والظفر ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فأول مكارم الإحسان من الله تعالى هو الإيواء، الذي يمثل الاحتواء بكل دلالاته ومعانيه الحسية والمعنوية، والذي هو أهم وأعز ما كان يتمناه المؤمنون ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ فجعل لكم مأوى تأوون إليه، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ضمكم الله إلى المدينة، أو إلى الأنصار[١] وكلمة المأوى تدل على الحماية والاحتماء مما يؤذي، وتحقيق الأمن والأمان. مما يفيد أن من أهم الأولويات الإنسانية هو تحقق الأمن، بوجود المأوى الذي يأوي ويركن ويسكن إليه الإنسان، فيأمن على نفسه وعلى من معه. والنعمة الأخرى النصر ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ أي: قواكم بالنصر، ومن ذلك تأييدكم بالملائكة الكرام يوم بدر، وفي غيرها، حتى أظفركم بعدوكم وبمن كان يستضعفكم، وتخافون منهم إلى درجة الفزع من أن يختطفونكم، ثم أجمل الله تعالى كمال الإنعام بقوله عَزَّ وجل ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فأجمل الله تعالى بعد تعداد أهم ما كان يهمهم إلى العموم ، ليشمل غير ذلك من الغنائم والخيرات التي مكنهم منها سبحانه وتعالى.

ثم ندب إلى شكره سبحانه وتعالى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ لكي تشكروا الله على ما أنعم به عليكم، فقد أنعم الله عَزَّ وجل عليكم بنعمه العديدة العظيمة لتحققوا الشكر له، فعلة الإنعام لتحقيق الشكر، فاشكروه سبحانه وتعالى على ما أنعم وينعم عليكم به. مما يفيد أن هذا الإنعام يستدعي منكم الشكر، وهذا الإنعام من الله تعالى عليكم لتحققوا له كمال الطاعة المعبرة عن الحمد والثناء والشكر لله ربكم، مما يفيد أن الإنعام من الله يستوجب الشكر، وأن الشكر يزيد في الإنعام والعطاء من الله سبحانه وتعالى، وإنعام الله تعالى على العبد من أجل أن يشكره ويمجده ويحمده بالقول والاعتقاد والعمل.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٠١/٢)

ويتكرر خطاب الله تعالى للمؤمنين بصيغة النداء، للتنبيه، والتعليم والإشعار بأهمية ما ناداهم إليه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ مع تكرار تسميتهم بالمؤمنين، والتي تفيد تزكية الله تعالى لهم، بأن الإيمان متحقق في قلوبهم، فأعظم به من وصف وتزكية من الله تعالى للمؤمنين، وكذلك لبيان أن ما يأمركم به هو الذي يليق بمن صفتهم الإيمان، وأن ما ينهاكم عنه هو الذي لا يليق بمن صفتهم الإيمان أن يكون منهم ذلك ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْـلَمُونَ ﴾ فينهى الله تعالى المؤمنين من الوقوع في الخيانة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ووردت الخيانة عامة، لتستوعب جميع أجزائها ومفرداتها، من غير تخصيص لشيء من قليل أو كثير، فلا تخونوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في أي أمر من الأمور، ومن ذلك العبادات، والحدود، والأموال، والمعاملات، والفرائض، والولاء والبراء، وما يخص المسلمين في أمنهم وأماناتهم وأحوالهم وأعراضهم وأخلاقهم، ولا في شيء من أعمال النفاق والمنافقين، ولا في الدسائس عليهم، ولا أن تخذلوهم مع الكافرين، ولا في غير ذلك مما لا يحصى. وربط سبحانه وتعالى الخيانة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم بخيانة أمانة النفس ﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ ﴾ فتنقضوا أمانتكم التي ائتمنتم عليها. وأمانة الإنسان هي محل الجرح والتعديل، فمن يتهم في أمانته فإن عدالته تسقط عند الناس. فلا مصداقية لخائن. وفي هذا تقبيح للخيانة من أوجه: أولها: خيانة الله تعالى، والثاني: خيانة رسوله صلى الله عليه وسلم، والثالث: خيانة الإنسان لعدالته فيما ائتمن عليه، بما يفيد المبالغة في الوصف التي يصل بها الخائن إلى إسقاط عدالته التي هي عنوان مكانته ومنزلته، وكمال وصفه في المعاملات مع الغير. مما يفيد قبحها وشناعتها، بأن يضيف الخيانة لنفسه في حق الله تعالى وحق رسوله صلى الله عليه وسلم، فليس بعدها خيانة، وليس بعدها عدالة.

ثم أسند الله تعالى وقوع الخيانة على العلم بما افترضه، لتزداد قبحاً على قبحها ﴿ وَأَنتُمْ تَعْـلَمُونَ ﴾ أي: وأنتم تعلمون أن فرائضه واجبة عليكم بما أثبته الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لكم، فتحصل الخيانة مع تمام العلم بها. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أي وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة، فتفعلون الخيانة عن عمد، أو وأنتم من أهل العلم، لا من أهل الجهل[1] وفي هذا بيان أنكم أهل علم بهذا الأمر وبفرائضه وحدوده، وشرعه، وبمعرفة الخيانة والأمانة، فلا يسعكم أن تفعلوها. وفي هذا كمال التوجيه مع كمال المعالجة وكمال البيان، وبلاغة النص الكريم.

ثم يخبر الله تعالى بحقيقة نعمة الأموال والأولاد، وما يترتب عليها ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْـنَةٌ ﴾ أي: أن عطاء الأموال والأولاد منه لكم هو اختبار، أتطيعونه فيها، وتشكرونه عليها، أو

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣٠١)

تنشغلون بها عن طاعته، وتجعلونها طريقاً للمعصية والتفاخر بها، واستخدامها في معصيته سبحانه وتعالى، مما يفيد أن نعم الله تعالى على العبد تحمل جانب التفضل بها عليه من ربه جَلَّ جلاله، وجانب الابتلاء والاختبار، ثم يرشد سبحانه وتعالى عباده إلى ما يحفزهم ويدفعهم لاستخدامها في طاعته، ببيان أن ما عند الله هو خير من ذلك ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ فما عند الله تعالى من الخير لمن أطاعه في المآل والولد شيء عظيم القدر، لا يقاس بنعمة المال والولد، فهو أعظم منها.

واشتمل سياق البيان للمثوبة من وجهين، الأول باعتبار موقعها من نص الآية الكريمة، فيكون الأجر متعلق بمن اتقى الله تعالى في المال والأولاد، والوجه الثاني: أنها جاءت عامة، لتفيد أن الله تعالى عنده أجر عظيم لكل من أطاعه، لتستوعب جميع أنواع الطاعات، وفي كل أمر وشأن من شريعة الله تعالى وعطائه الذي لا يستطيع أن يحده أحد بحدود التعدد والذكر والوصف. كما اشتمل الوصف على كلمة ﴿ عَظِيمٞ ﴾ التي تدل على الكثرة، وتدل على عظمته في نوعه، وعظمته على النفس في محبته وفرحه به، وعظمته في كل جانب ووجه، وإذا كان هذا الأجر العظيم من الله تعالى الموصوف بالعظمة والكرم، فإنه يكون مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر. وفي هذا توجيه رباني للمجتمع المسلم بما يربي فيهم حُسن التعامل مع الأموال والأولاد، مما ينعطف أثره على العلاقات الاجتماعية.

ثم يخاطب الله تعالى المؤمنين بتكرار المناداة لهم بياء النداء، ووصفهم بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ فيخبر جَلَّ جلاله عباده المؤمنين بجزاء المتقين له، وجعل التقوى شرط لهذا الجزاء العظيم ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ شرط لما بعده من الجزاء. مما يستدفع المؤمن نحو تحقيقها لتحصيل هذه الغنائم العظيمة من الله عَزَّ في علاه. وأولها: ﴿ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ أي: مخرجاً ونجاة، ونصراً، وفصلاً بين الحق والباطل، فيوفق الله تعالى المتقين من عباده إلى معرفة الحق من الباطل، فلا يشتبه عليهم، مع إتيانهم الحق ومحبته، وكره الباطل والابتعاد عنه، بما يقودهم إلى فعل الخيرات وترك المنكرات. وثانيها: ﴿ وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ أي: يمحو عنكم ذنوبكم. وثالثها: ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ أي: يغطيها ويسترها عليكم، فلا يؤاخذكم بها. ورابعها: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ فإن ربكم يتفضل بالعظيم من الجزاء والعطاء. وهو إجمال للفضل وعمومه، بما يبين ويوضح أن هناك أفضال عظيمة تنالونها، فباعتبار موقع هذه الصفات الكريمة والعطاء العظيم في سياق جزاء وثواب من يتقي الله تعالى، تكون لهم، وأما باعتبار عموم سياقها تكون عامة عليكم وعلى غيركم من خلقه، فهو المتفضل على عباده بما أعطى ومنح، وبما غفر وستر.

وقوله تعالى ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ما يفيد الزيادة عمَّا يستحق العبد، لأن الفضل زيادة عن الاقتصار على الاستحقاق. وأيضاً أضاف تبارك وتعالى على الفضل منه صفة ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ ليدل على الكثرة، ويدل على المبالغة في العطاء، بحيث لا يتصوره العبد ولا يخطر بباله. كما يفيد قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أن الله تعالى متصف بالفضل العظيم، وأنها صفة من صفات الله تعالى. وإذا كان المتصف بهذه الصفة له ملك السماوات والأرض، ولا يعجزه شيء، فإن العطاء منه سيكون مدهش للعباد إذا أعطاهم. اللهم إنَّا نسألك من فضلك العظيم في الدنيا والآخرة.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ
ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ
هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ
عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما كان من مكر كفار قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ فهذا خطاب يكشف الله تعالى به ما كان من عموم أوجه مكر المشركين بنبيه صلى الله عليه وسلم. وكذلك فيه بيان حماية الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم من مكر أعدائه المشركين من قريش.

وقد وصف الله تعالى ما كان من عموم أوجه مكرهم من غير تحديد وتعيين ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بيان عام بعموم المكر، ثم الانتقال بعد العموم إلى التفصيل، في تدرج بياني عظيم.

ثم يكشف سبحانه وتعالى الهدف من مكرهم، فإن غاية مكرهم أن يظفروا بواحدة من ثلاث ﴿لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ وهي في نفس الوقت تشكل الوسائل الْمُعْتَمَدَة عندهم، للحيلولة دون بلوغ النبي صلى الله عليه وسلم لمراده وأمره من نشر دين الله عَزَّ وجل. فالأول هو: ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ وهذا يحمل معاني ودلالات متعددة تستوفي جميع نشاطهم ومرادهم ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أقوالاً في ذلك: أي ليقيدوك، وليوثقوك، وليسجنوك، ليسحروك[1] وجميعها تؤدي إلى المنع والتثبيت وحبس الإرادة، وعدم الحركة، وأما الثاني فهو: القتل ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ والرابع هو الإخراج: ﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف، لو قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله[2] وفي تفصيل آخر: أن كفار قريش تشاوروا في ليلة، وهم بمكة، فقال بعضهم، إذا أصبح فأوثقوه بالوثاق، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله العزيز الحكيم نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك، فبات علي رضي الله على فراش النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً، يحسبونه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه علياً رضي الله عنه، رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل ومروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، قالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج على بابه، فمكث فيه ثلاث [3] وأما الإخراج فهو الطرد والإبعاد من مكة.

وإزاء هذا المكر منهم، كان مكر الله تعالى يحيط بهم ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ والمكر هو: صرف الغير عَمَّا يقصده بحيلة، أو إيقاعه في أمر خفية. والمكر ضربان: مكر محمود، وذلك أن يتحرى به فعل جميل محمود، وعلى ذلك قال الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[4]

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/١٣١-١٣٣)

(٢) أحمد، المسند (٤/٤٨٦) برقم (٢٧٦٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/١٣٦-١٣٧)

(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات في غري القرآن ، ص(٤٧١)

فهم يخططون خفية لإيقاع الضرر بالنبي صلى الله عليه وسلم، وتحقيق مرادهم، ولكن كان مكر الله تعالى يحيط ويلف بهم، وهم لا يعلمون ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فقد كانوا يمكرون، والله سبحانه وتعالى يمكر فيهم بكيده العظيم، وقد كان مكرهم إيقاع الشر، بينما كان مكر الله تعالى دفع الشر عن نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومكرهم محادة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومكر الله تعالى نصرة دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومكرهم لإحقاق الباطل، ومكر الله تعالى لإحقاق الحق. وقد وصف الله تعالى مكره بالخيرية ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فإن الله تبارك وتعالى خير الماكرين، وذلك لما يتحقق بمكره عَزَّ وجل من العدل والخير، وصد الظلم والجور، وإيقاع العقوبة. فكانت خيرية مكر الله تعالى في الهدف وفي الوسيلة، وفي القوة والغلبة، والانتصار. وفي هذا ما يشحذ همة المؤمن بتحري التقوى واستجلاب قوة الله تعالى له بجميل الطاعة وحُسن العمل. وأن من كان الله تعالى معه فلن يستطيع أن يهزمه أو يثنيه أحد عن مسلكه ومبتغاه من الخير، بل سيجعل له فرقاناً في أمره وشأنه، كما جاء فيما سبق من قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾

ثم يخبر الله تعالى بحال قريش، في تعنتهم وإصرارهم على الشرك، ومقابلتهم لآيات الله تعالى بالتخذيل والتهوين عند سماعهم لها ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا﴾ أي: ليس هذا الكلام بجديد، مما يعبر عن تكبرهم، واستعلائهم على الحق، والاستخفاف به، ثم تمادوا إلى الادعاء كذباً وبهتاناً بأنهم قادرين على الإتيان بمثل آيات القرآن الكريم ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ وهم لا يستطيعون، بل قد تحداهم الله تعالى أن يأتوا بسورة من مثله، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ ثم تمادوا في الجحود والتكذيب، فوصفوا آيات القرآن الكريم بأنها أساطير ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فهي قصص وحكايات الأولين، وهو ما يتسامر به الناس من القصص والحكايات والخرافات، فنسبوا الكذب للقرآن الكريم بهتاناً وزوراً، مع أنهم أفصح الناس لغة، مما تقوم به الحجة عليهم، إذ لا يسعهم إنكار آيات الله تعالى، وهم أعرف الناس بإعجازها من كل وجه، حتى أنهم عجزوا أن يأتوا بمثله، وتحداهم الله تعالى أن يأتوا بسورة واحدة، حتى ولو اجتمعوا لها جميعهم. وهذا الوصف منهم بأنها أساطير الأولين ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما يبين شدة مبالغتهم في التكذيب والعناد. مما يفيد أن المكابر يخترع الكذب، ويفتري ما يشاء من الباطل، بما يغرر به نفسه وغيره، بل ويتمادى في العناد ومحاربة الحق، من أجل إثبات انتصاره، مما

يلزم المؤمن أن يتنبه لأثر الكبر وما يغرسه من الحسد، والإعجاب بالنفس، والزهو بها، ثم التمادي في رفض الحق أياً كان نوعه، وفي أي مجال كان. فهو داء عضال، بل ومن أخطر الأدواء على الإنسان.

ومن شدة غرور المشركين بأنفسهم أن سألوا العذاب من الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فالكبر يقود إلى الغرور، والغرور يقود إلى التمادي في الجهل، فاستفتحوا بسؤال العذاب إن كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق. فيطلبون من الله تعالى أن ينزل عليهم حجارة من السماء ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ فمن شدة تعنتهم أن بالغوا في سؤال الحجارة، بأن يكون مصدرها من السماء، فلا تكون من حجارة الأرض، بل مخصوصة لهم بالعذاب، ثم يؤكدون تماديهم بخيار آخر، وهو قوله تعالى عنهم ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أو بعذاب يأتينا على أي وجه كان، بل تمادوا في وصف الطلب، بأن يكون عذاباً أليماً، فلم يكتفوا بمطلق العذب، بل بالغوا في الطلب، مما يكشف مبالغتهم في التكذيب، وإلا كيف يتمنون العذاب، بل كيف يتمنون أشد العذاب، فهذا التمني يدل على التحدي والتعنت.

وقال الله تعالى رداً على قولهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فقد قضت حكمة الله تعالى أن لا يعذب المشركين ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ فمع استحقاقهم العذاب، إلا أن الله تعالى بحلمه رفع عنهم الإيقاع لوجود سببين: السبب الأول: وجود نبيه صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، فقد كان مانعاً من أن يصيبهم الله تعالى بعذابه ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ وفي هذا تكريم وإعزاز لمقام جناب رسوله صلى الله عليه وسلم، وأما السبب الثاني: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فلن يعذبهم وبينهم أهل الإيمان، الذين يستغفرون الله تعالى، مما يفيد ويبين منزلة الاستغفار، وأن الله تعالى يدفع به العذاب، بل قد يمنع الله تعالى به العذاب عن المستحقين، ويؤجله لهم، من أجل وجود المؤمنين الذين يستغفرون الله تعالى بين المستحقين.

ثم بعد خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، ولحق به المهاجرون رضي الله عنهم، أتاهم العذاب الذين سأله المشركون، وهو ما وجدوه من القتل والأسر في غزوة بدر، وما وجدوه في غزوة الخندق من النكاية، وما حصل من الإذلال والقهر للمشركين بفتح مكة. وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: كان

النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فكان بقية من المسلمين بمكة، يستغفرون الله بها، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ثم خرج أولئك البقية من المسلمين من بينهم، فعذَّب الكفار ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ﴾ فأذن له في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم. وقال ابن عباس رضي الله عنه: لم يعذب الله تعالى قرية حتى يخرج النبي منها والذين آمنوا معه، ويُلحقه بحيث أمر. وقال آخرون: وما كان الله ليعذب هؤلاء المشركين من قريش بمكة وأنت فيهم يا محمد، حتى أُخرِجُك من بينهم، وما كان الله معذبهم، وهؤلاء المشركون يقولون: يا رب غفرانك، وما أشبه ذلك من معاني الاستغفار[١] وإذا رُبط هذا الوجه من التأويل بالآية التي تليها، وهو قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أفادت تعظيم قدر الاستغفار، وأنه بالرغم من عظيم قدر الاستغفار إلا أن عظيم جرمهم من الشرك وصدهم غيرهم عن المسجد الحرام هو أعظم من استغفارهم، حتى أنه مع عَظيم وعِظم شعيرة الاستغفار إلا أن جرم الشرك، وما يقومون به من الصد عن البيت، كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ومن معه من المؤمنين يوم الحديبية، فإن ذنبهم أعظم من أن يُستجاب لمن استغفر منهم. مما يفيد أن غير المؤمنين لا ينتفعون باستغفارهم في دفع العذاب، وأن استغفار المؤمنين ممن بقي في مكة حجب عنهم العذاب، فاستغفار المؤمنين هو الذي حجب الله تعالى به العذاب عنهم. لأن الآية في سياق الإخبار عن المؤمنين، وكل هذا لحكمة يعلمها الله تعالى، ومن بينها عِلْمُ الله تعالى السابق بأن منهم من سيدخل في الإسلام، مثل: أبو سفيان، وحكيم بن حزام وغيرهم ممن أسلموا وكانوا قوة للدين. مما يفيد أن الأوجه المرجوحة لا تخلوا من فائدة، إذا تأملناها وتدبرناها.

وذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: أن أولى الأقوال بالصواب: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد، حتى أُخرجك من بين أظهرهم، لأني لا أهلك قرية وفيها نبيها. وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون من ذنوبهم وكفرهم، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك، بل هم مصرون عليه، فهم للعذاب مستحقون ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ بمعنى: وما شأنهم، وما يمنعهم أن يعذبهم الله وهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/١٥٧)

لا يستغفرون الله من كفرهم فيؤمنوا به، وهم يصدون المؤمنين بالله ورسوله عن المسجد الحرام[١] وذكر كذلك أنه عُني به المؤمنون، وهو في سياق الخبر عنهم[٢]

وسياق قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يفيد الاستنكار عن عدم حلول العذاب بهم، فما الذي يمنع من وقوع العذاب بهم والحال منهم أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام، فهل يليق بهم أن يكونوا في مأمن من العذاب؟ فهل يليق بهم غير وقوع العذاب، فإنهم مستحقون العذاب لما ارتكبوا من الأسباب الموجبة له، فلا يليق بهم غير وقوعه بهم، واكتفى النص الكريم بفعلهم في الصد عن المسجد الحرام، إمعاناً وبياناً لجرأتهم في صد الناس، والحيلولة بينهم وبين دخول المسجد الحرام، مما يفيد عظيم جرأتهم، فكما أنهم تجرؤا على ذلك، فإنهم تجرؤا على رسوله صلى الله عليه وسلم، فيصدون نبي الله تعالى، ويصدون المؤمنين ويرفضونهم، وقد منعوا في صلح الحديبية الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من دخول المسجد الحرام.

ثم يقول تعالى مبيناً صفة هؤلاء ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓ﴾ فليس هؤلاء المشركين من أوليائه سبحانه وتعالى حتى يمنع عنهم إيقاع العذاب، فليس كما يَدَّعُون بأنهم أولياء المسجد الحرام، فقد تضمن السياق دلالتين: الأولى: نفي ولايتهم للمسجد الحرام، والدلالة الثانية: أي ليس هم أولياء الله تعالى. ففي كلا الوجهين قد انتفت الولاية لهم، وهذا من بلاغة تراكيب النص اللفظية التي استوعبت الأمرين، ليكون كلام الله تعالى معجز حتى في أوجه مضمونه، التي تتظافر في إعطاء المعاني المتعاضدة التي لا تنافر ولا تضاد بينها.

ثم يقطع الله تعالى الأمر في بيان ولايته عَزَّ وجل ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فأولياء الله تعالى هم المتقون ربهم تبارك وتعالى، بأداء ما أوجبه عليهم، والانتهاء عَمَّا نهى عنه عَزَّ وجل، فيخافونه ويرجونه تبارك وتعال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ولكن أكثر المشركين يجهلون أن أولياء الله تعالى هم المتقون، الذين لهم النصر والتأييد من لدنه عَزَّ وجل، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، فإن أكثر المشركين لا يعلمون ذلك، مما يفيد أن منهم من هو موقن بنبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم، ولكن عناد الكبر والحسد، وحب الرياسة استولى عليهم، وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى قولاً لقريش، يبين إدراكهم لحقيقة ذلك: فعن يزيد بن رُومان ومحمد بن قيس، قالا: قالت قريش بعضها لبعض: محمدٌ أكرمه الله من

(١) المرجع السابق (١١/١٤٨-١٥٠)

(٢) المرجع السابق (١١/١٥٨)

بيننا[١] فهذا الكلام الصريح منهم يوضح أنهم أدركوا أن ولاية الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وأنه ناصرهم. مما يفيد أن المتقين هم الذين يحظون بولاية الله تعالى لهم، وأن أولياء الله تعالى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم يخبر الله تعالى بحقيقة عبادة مشركي قريش ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت قريش تطوف بالبيت عراة، يصفّقون ويصفّرون، فكان ذلك عبادة في ظنهم، والمكاء: أي: الصفير. وأما التصدية فهي: التصفيق[٢] وهذا النص الكريم يبين أن دين الله تعالى منهج من عنده، سبحانه وتعالى، وأنه لا اختراع ولا ابتداع في الدين. وفي هذا معالجة ورَد لمن يتلاعب بدين الله تعالى، فإن دين الله تعالى ليس لعباً، وليس فيه شيء من اللعب. كما أن في هذا رد على الجهال الذين يعبدون الله تعالى بالغناء والرقص والتصفيق ودق الطبول. وأن من يفعله فإنما يتشبه بفعل أهل الشرك، ثم يذكر الله تعالى ما يستحقونه من الجزاء ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فذوقوا ما تستحقون من العذاب، لقاء ما كنتم تكفرون به، فذوقوا العذب بما كفرتم به من التكذيب والكفر برسوله صلى الله عليه وسلم والقرآن، وما جاءكم به من الآيات. وفي هذا توبيخ وترهيب، و دلالة كلمة ﴿فَذُوقُوا۟﴾ إشارة وبيان لأقوى الحواس التي هي حاسة الذوق، فباشروا الإحساس بالعذاب كما تباشرون تذوق الأشياء بحاسة الذوق. فكأن شدة العذاب من قوته كشدة التأثر والتأثير التي تكون بحاسة اللسان والفم. فنسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥١/١١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٤/٧)

لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى صد المشركين عن المسجد الحرام، وانتفاء حقيقة ولايتهم للمسجد الحرام، وأنه ليس لهم ولاية من الله تعالى، بل إنهم مستحقون للعذاب، وأوضح أن أولياءه هم المتقون، يذكر بعد ذلك سبحانه وتعالى ما يكشف به عن محاولتهم القوية للصد عن سبيله بأغلى وأنفس ما يملكون من الأموال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وقد جاء السياق عاماً، ليشمل كل ما أنفقوا وما ينفقون وما سوف ينفقون، ليشمل ما كان منها من أموال تجارة أبي سفيان، بعد بدر، أو فيما أنفقوه في بدر، أو ما كان بعدها، وسواء قليله أو كثيره، موضحاً سبحانه وتعالى الهدف من وراء هذا الإنفاق، وهو لمحاصرة دين الله تعالى ﴿ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بهدف منع الناس عن الدخول في سبيل الله عَزَّ وجل، فبلغ بهم الأمر أنهم أنفقوا في سبيل ذلك أموالهم التي هي أنفس ما يملكون، ثم بين تبارك وتعالى عاقبة ذلك عليهم ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ ﴾ فهذا الإنفاق سيكون ندامة وحسرة عليهم، حيث سينقلب عليهم بضد ما يرجون ويبتغون من فعلهم، وهو الصد عن سبيل الله تعالى، فينقلب فعلهم شراً عليهم، لأنهم لن يظفروا بأية مكاسب يرغبون تحصيلها، غير ذهاب أموالهم وأرواحهم، فكان الإنفاق المالي سبب في حدوث القتل بين صفوفهم، وذهاب كبرائهم.

فجمع لهم بين خسارة الأموال التي ينفقونها في محاربة دين الله تعالى وبين الغلبة والهزيمة. فهناك إنفاق منهم، ثم تحصل الحسرة في قلوبهم على ما أنفقوه ﴿ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ ﴾ فيجنون الهزيمة التي هي عين الحسرة. وبالفعل حصل ما أعلم وأخبر به الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، لتكون آية من آيات دينه تبارك وتعالى، وأيضاً آية من آيات نبوته صلى الله عليه وسلم، ومعجزة لكلامه وكتابه عَزَّ وجل. ثم قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴾ وفي هذا إخبار بمآلهم، وفي نفس الوقت إنذار وتحذير من المآل الحقيقي لهم ولكل كافر بأنهم يوم القيامة إلى جهنم يحشرون، فيكون بذلك قد تحققت لهم خسارة أنفسهم ومكاسبهم من الأموال، وتحققت لهم الحسرة والندامة في نفوسهم في الدنيا، ثم في الآخرة إلى جهنم يحشرون.

ومن جمال البيان ودقائقه أن ذكر الله تعالى الإنفاق مرتين: الأولى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ فعل مضارع ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ ليفيد استمرارية الإنفاق، فليس لمرة واحدة، بل إنفاق مستمر، وأنه كلما حصلوا على أموال استنفذوها في الصد عن سبيل الله تعالى، وذلك بمحاربة دينه وكتابه ورسوله صلى الله

عليه وسلم ومن معه من المؤمنين، ثم ذكر الإنفاق الثاني: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ليفيد تأكيد مستقبل الإنفاق الأول ونتيجته، بأنها ستكون حسرة وأسى عليهم، فيجتمع عليهم خسارة ما أنفقوا، وخسارة الأنفس، وخسارة النتيجة، والحسرة بحصول الغلبة والهزيمة. فتجتمع عليهم، حسرات الألم النفسي، وخلو اليد مما جمعت وتعبت في تحصيله، وخسارة الأنفس، وحصول ألم الهزيمة.

ثم يخبر الله تعالى بأهداف ومحصلة هذه الحرب بين الحق والباطل ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ ليظهر ولينفرز العمل الطيب من العمل الخبيث، وكذلك لينفرز ويظهر الإنفاق في سبيله سبحانه وتعالى وما كان من إنفاق في سبيل معاداة ومحاربة دينه ورسوله وكتابه والمؤمنين، وليميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وليظهر أهل الإسلام من أهل الكفر، وليتميز المؤمن من الكافر، فإن في المحن تظهر الحقائق والبواطن. والله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية، ولكن لتقوم الحجة على كل أحد بما كسب.

ومن غزارة البيان استيفاء كلمة ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ لجميع أنواعه وحجمه وقليله وكثيره، كما استوفت كلمة ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ جميع أنواع العمل والقول الطيب، من حيث نوعه وعدده وحجمه وكثيره وقليله، وهذه من الغزارة البيانية التي تدل على بلاغة القرآن الكريم في استيفاء ألفاظه للدلالات والمعاني والمقاصد، من حيث اختيار الكلمة، ومن حيث موقعها في السياق.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يجمع الخبيث ليكون بعضه فوق بعض، فلا قيمة لنوعه ولا لحجمه ولا لكثرته، فاتحاده في الصفة جعل بعضه على بعض، فلا عبرة به، وفي هذا نوع من التحقير والإهانة له ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ والركم هو ضم وجمع بعضه فوق بعض، على صورة الركام، بما يفيد التحقير والإذلال للخبيث والخبيثين، فهو مزيد من التحقير، ثم يخبر الله تعالى بالمحصلة والنتيجة، وهي ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ فيجعل هذا الخبيث الذي تراكم بعضه فو بعص في جهنم، ليشمل جميع أنواعه وأحجامه وأشكاله، فيركمه مع أموالهم التي أنفقوها، وأعمالهم وأقوالهم، حتى يُعذبوا بها في جهنم وسوء المصير، فكما عظموها في دنياهم، عظمها الله تعالى عليهم بالعذاب، وأخزاهم بها معهم في جهنم، امتهاناً لما عظموه ورفعوه، فتحققت لهم الخسارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فوصف تبارك وتعالى الكافرين بالخسرين، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ودنياهم وآخرتهم، فتحققت لهم الخسارة من كل وجه. بل من شدة المبالغة في الخسارة أن عينهم تعيناً باسم الإشارة أولاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ثم أعقبه بالضمير ﴿هُمُ﴾ الذي أفاد التعيين والتخصيص بالخسارة التي وقعوا فيها.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم عفوه لمن ترك جرمه، وعاد إلى الحق ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ قل يا أيها النبي للكافرين إن تركوا كفرهم وانتهوا منه، ودخلوا في دين الله تعالى فإن الله عَزَّ وجل يغفر لهم ما كان من كفرهم، وما كان من تبعاته، فلا يؤاخذهم بما كان منهم قبل الإسلام. مما يدل على رحمة الله تعالى، فيقابل الذين حاربوا دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم وكتابه والمؤمنين بالصفح والعفو إن تركوا الكفر، ودخلوا في دين الله تعالى، وهذا السياق عام، ليشمل قومه صلى الله عليه وسلم من قريش، ومن كان في عهده صلى الله عليه وسلم، ومن يأتي بعدهم. مما يبين رحمة الله تعالى، وأن مراده عَزَّ وجل هو هداية الناس، وترغيبهم في دينه، ليفوزوا بالجنة، ويجتنبوا عذاب النار.

ومن فوائد السياق أن الله تعالى نعت قومه عليه الصلاة والسلام ممن لم يؤمن بالذين كفروا ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ لتستوعب الحكم في كل من كفر في أي زمان وأي مكان. وهذا من بلاغة البيان، وغزارته البلاغية، وكذلك قوله عَزَّ وجل ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ فاكتفى البيان بالانتهاء عن ما سلف من الكفر، ولم يذكر الدخول في الإسلام، لأنه لا يحصل الانتهاء عَمَّا سلف إلا بالدخول في الإسلام، فليس هناك مسافة أو منزلة بينهما، فإما الكفر أو الإسلام. وكذلك لأن الكفر واحد، وإن تعددت أوجه الكفر، فمن ترك الكفر فإنه ليس أمامه إلا الإسلام، فمن لم يدخل في الإسلام فهو كافر على أي وجه كان. وإن تخلى عن بعض كفره، فإنه لا يزال واقع فيه، فالكفر لا يُبَعَّض، مما يدل على أن كل ما هو غير الإسلام فهو كفر، فليس هناك مساحة ومنزلة واقعة بين الكفر والإسلام، فكل من لم يدخل في الإسلام فهو كافر. وهذا من دقائق الإعجاز البياني والبلاغي للقرآن الكريم.

ومن بلاغة البيان الإيجاز، فقد قال تعالى عن حال أنهم لم ينتهوا عن كفرهم ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: إن يعودوا للقتال فستمضي فيهم سنة الله تعالى التي مضت فيمن بغى وكفر من الأمم السابقة، بما يبين أنه حال كونهم لم ينتهوا من الكفر ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ فقد مضت ما تعرفون من سنة الله تعالى فيمن مضى من الأمم، بأن ينصر الله تعالى أنبياءه، ويهلك من كفر، فجمعت الاعتبار بمن قبلهم، والتهديد والتحذير من أن يكون حالهم كحال من سبقهم ممن لم يؤمنوا بما جاءهم من الله تعالى على أيدي رُسُله عَزَّ وجل. وقد جاء النص الكريم في غاية الدقة والبلاغة البيانية ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ فالإخبار جاء بالإشارة إلى ما مضى من سنن الله تعالى في الكافرين،

فهي مغنية عن كل بيان، وأعطاهم البيان الكريم حرية الاختيار، مع تقوية جانب الترغيب، وذلك بتكفير ما سلف من ذنوبهم مهما عظمت.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بمقاتلة المشركين، لمنعهم من إيقاع الفتنة ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ فجعل سبحانه وتعالى الفتنة سبب لمقاتلتهم، وقال العلماء في معنى الفتنة: الشرك، وقال الزجاج: حتى لا يفتن الناس فتنة كفر، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[١] حتى لا يكون شرك، ولا يُعبد إلا الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض، وهو الفتنة ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله تعالى، خالصة له دون غيره[٢] ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ﴾ أي: فإن انتهوا عن الفتنة، وهي الشرك بالله، وصاروا إلى الدين الحق معكم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ فإن الله تعالى لا يخفى عليه ما يعملون، من ترك الكفر، والدخول في دين الإسلام، لأنه يبصرهم ويبصر أعمالهم، والأشياء كلها متجلية له سبحانه وتعالى[٣]

ويخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بما يصنعون إن أبى المشركون عن الانتهاء عَمَّا نُهوا عنه ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ فإن لم يستجيبوا لما نُهُوا عنه، فعليكم أن تتيقنوا أيها المؤمنون بأن الله تعالى مولاكم، أي متولي أمركم، بما يفيد أنه ناصركم عليهم، فلا تتضررون بتوليهم، فأنتم في غنى عنهم، فلا حاجة لكم بهم، لأن الله تعالى هو مولاكم ﴿ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ وهذا مدح وثناء من ربنا على ذاته الكريمة، فالمولى هو الذي يتولى أمر غيره، ويتكفل به، فيتكفل بدفع الضر والبأس عنكم، ويتكفل بتحقيق الخير والنصر لكم ﴿ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ ﴾ فنعم من تولاكم، وتولى أمركم، فليس هناك أعظم ولاية وعناية وإعانة من الله تعالى ﴿ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ ونعم الناصر الذي لا بعده أقوى نصرة منه. إذ أن كلمة ﴿ نِعۡمَ ﴾ استوفت جميع مجامع المدح والثناء، فهو أكمل وأقوى وأقدر إذا تولاكم، وهو أكمل واقوى وأقدر على النصرة إذا أراد نصركم، فليس هناك أعز وأقوى منه ولاية ونصرة سبحانه وتعالى.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٣/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٨/١١)

(٣) المرجع السابق (١٨٣/١١)

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

يعود السياق الكريم إلى شأن توزيع الأنفال التي ابتدأ بها مطلع السورة المباركة، فقال عزَّ وجل ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ ابتدأ الخطاب بفعل الأمر ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ ليفيد التعليم، وشد الانتباه، وتعظيم الأمر، والتنبيه والاهتمام به، وتحقيق إنفاذه، وأن تتعاهدوه ولا تنشغلوا عنه بالغنيمة ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

قال الزجاج: الأموال ثلاثة أصناف: فما صار إلى المسلمين من المشركين في حال الحرب، فقد سماه الله تعالى: أنفالاً وغنائم. وما صار من المشركين من خراج أو جزية مما لم يؤخذ في الحرب، فقد سماه: فيئاً. وما خرج من أموال المسلمين، كالزكاة والنذر والقُرَب؛ سماه: صدقة. وأما قوله تعالى ﴿ مِّن شَيۡءٖ ﴾ فالمراد به كل ما وقع عليه اسم شيء، قال مجاهد: المخيط من الشيء[1] وهذه من دقة بيان القرآن الكريم، ومن دقة وغزارة ما فاض الله تعالى على العلماء من الفهم الدقيق. مما يفيد عموم كل شيء غنمتموه، صغيره وكبيره، فلا يحل لأحد أخذه وحيازته مهما بلغ صغره وحقارته، حتى ولو كان مخيطاً أو أقل شأناً منه، فإنه داخل في الغنيمة.

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٤٤)

فالغنائم هي الأنفال، وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى: أن الأنفال: جمع نفل، وهي الغنيمة، وأصل النفل الزيادة، ومن ذلك إطلاق النافلة على التطوع، لكونها زائدة عن الواجب، وسميت الغنيمة نافلة لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرهم، أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد.[١] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: النفل الغنيمة، لأنها من فضل الله تعالى وعطائه، والنفل ما ينفله الغازي، أي: يُعْطَاه زائداً على سهمه من الْغُنْمِ، كقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب: من قتل قتيلاً فله سلبه، أو أن يقول لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو فلكم نصفه[٢] وذكر الجرجاني في تعريف النفل: أن النفل لغة: الزيادة، ولهذا سميت الغنيمة نفلاً، لأنه زيادة على ما هو المقصود من شرعية الجهاد، وهو إعلاء كلمة الله تعالى، وقهر أعدائه، وفي الشرع: اسم لما شرع زيادة على الفرائض والواجبات، وهو المسمى بالمندوب والمستحب والتطوع[٣] وملخص ذلك أن الأنفال هي الغنائم التي يحصل عليها المسلمون من الحرب، وسواء ما يكون زائداً بخصيصة أو لعلة، أو ما كان بالتساوي، فالحكم فيها لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. ولكن أفادت دلالة لفظة الأنفال رحابة أوجه معانيها من غير تعارض ولا تضاد، بل في اتساق، مع رحابة في توسعت دائرة الفهم والاستيعاب.

وقد تولى الله تعالى قسمة الغنائم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ولخص السعدي رحمه الله تعالى ذلك بأن ما أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون، لأن الله تعالى أضاف الغنيمة إليهم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ وأخرج منها خمسها، فدل على أن الباقي لهم، يُقسم على ما قسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم للراجل سهم، وللفارس سهمان: سهم لفرسه، وسهم له، وأما هذا الخُمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله تعالى جعله له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله تعالى. فإذا لم يعين الله له مصرفاً، دل على أن مصرفه للمصالح العامة، والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم، من بني هاشم، ومن بني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه هي مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم. والخمس الثالث: لليتامى، وهم الذين فُقِدَت آباؤهم، وهم صغار، جعل الله تعالى لهم خُمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٨٣)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٢/١٩٠)

(٣) الجرجاني، التعريفات (٢٤٥)

فُقِد من يقوم بمصالحهم. والخمس الرابع: للمساكين، أي المحتاجين الفقراء، من صغار وكبار، وذكور وإناث. والخمس الخامس: لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده[١]

ثم ربط تبارك وتعالى بين تحقيق ما فرضه في قسمة الغنيمة وبين الإيمان ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أما وقد علمتم ما فرض الله تعالى في قسمة الغنيمة فحققوها كما فُرضت إن كنتم حققتم الإيمان بالله تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ وما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ يوم غزوة بدر، إذ فَرَّق اللهُ تعالى فيه بين الحق والباطل ﴿ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ وهم الفريقان: فريق المؤمنين، وفريق المشركين. فنصر الله تعالى المؤمنين على المشركين، مع قلة عدد المسلمين، وكثرة عدد المشركين، حتى بلغ عدد عدوهم ثلاثة أضعاف عددهم، فكان انتصارهم آية باهرة، واضحة. فإن كنتم آمنتم بذلك فحققوا ما فرضه الله تعالى عليكم في قسمة الغنائم. وهذا دليل على لزوم تحقيقها، وأن تحقيقها علامة الإيمان. ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بالتنويه عن كمال قدرته ومشيئته عَزَّ وجل، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فإن من قدرته جَلَّ جلاله أن أدالكم على عدوكم، ومكنكم من رقابهم، وأسرهم، فلا يعجزه شيء، وفي هذا ترغيب للطاعة، وترهيب من عدم الأخذ بما شرع. وجاء النص الكريم عاماً ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ليشمل القدرة على كل شيء، فليس مخصوصاً بالنصر فقط، بل إنه قدير على كل شيء سبحانه وتعالى.

ثم يستمر البيان الكريم بعرض أحداث يوم الفرقان ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ إذ أنتم نزول بطرف الوادي، لأن العدوة جانب الوادي، وشفير الوادي، قال الفيومي رحمه الله تعالى: وعدوة الوادي جانبه، بضم العين في لغة قريش، وبكسرها في لغة قيس[٢] وأما ﴿ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: الأقرب إلى المدينة، والدنيا من الأدنى، أي الأقرب، فيكون موقعكم كان من جانب

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٠٣-٢٠٤)

(٢) الفيومي، كتاب المصباح المنير (٢/٥٤٤)

الوادي في الجهة الأقرب إلى المدينة، وأما عن موقع العدو ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ التي مما يلي مكة، فالمشركون بطرف الوادي الأبعد ﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي: الأبعد إلى جهة المدينة، من ناحية مكة، فهي قصوى بالنسبة لموقع المسلمين.

وأما عن أمر وحال عير أبي سفيان في ذلك الوقت، فيقول تبارك وتعالى عنها ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: عير أبي سفيان بالساحل، وهو أدنى وأسفل من موقع بدر، فعن أبي إسحاق رحمه الله تعالى: أي عير أبي سفيان التي خرجتم لتأخذوها، وخرجوا ليمنعوها عن غير ميعاد منكم ولا منهم[١] ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ يعني الأربعين الذين كانوا يقودون العير ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي بالساحل، أي مكاناً أسفل من مكانكم[٢] وفي هذا تصوير بياني دقيق لواقع الحال التي كان عليها المسلمون، والحال التي كان عليها المشركون، والعير التي فاتتهم، وما كان من مرادهم للظفر بالعير، ومراد المشركين من حماية العير، وما استعد به المشركون من حيث العدد والعدة، وما فاتكم من الاستعداد من حيث العدد والعدة، وبالرغم من جميع تلك الظروف فقد أظفركم الله تعالى عليهم، فقتلتم منهم سبعين مقاتلاً، وأسرتم سبعين رجلاً، وما كان ذلك ليحصل لولا ترتيب الله تعالى وولايته ونصره لكم، ليكون ذلك الموقف، وذلك اليوم، يوم الفرقان، ليفرق الله تعالى به بين الحق والباطل، وتظهر شوكتكم وقوتكم وقدرتكم أمام عدوكم، ويظهر شأنكم وخبركم عند غيرهم، وما يترتب على ذلك من القوة النفسية والإيمانية التي تحصل في قلوب المؤمنين لِمّا رأوا من آيات النصر والظفر. وأن ما فات المسلمين من العير، لا يساوي شيئا مع المكاسب التي حصلوا عليها من لقاء عدوهم. ومن مكاسبهم سماع غيرهم بهذا الحدث والانتصار العظيم، والهيبة التي ستكون لكم، مع انكسار نفوس وشوكة عدوكم.

ثم يشيد سبحانه وتعالى بإبرامه الموعد بين الحق والباطل ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِ﴾ بل من قوة بلوغ الأمر أنكم لو تواعدتم أنتم والمشركين على موعد للقتال، لاختلفتم في ذلك، ولما توافقتم عليه، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: لثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من تهيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فلم يتفق لكم من التلاقي فيما وفقه الله تعالى وسَبَّب له[٣] فانتفاء أسباب التلاقي بينكم متحقق من كلا الطرفين ﴿وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠٤/١١)
(٢) الزمخشري، الكشاف (٢١٩/٢)
(٣) المرجع السابق (٢٢٠/٢)

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: أي ليقضي الله تعالى ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، من غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه[١] فهذ ليقضي الله تعالى ما يعز به الإسلام، ويُذل به الشرك. فقد دبر الله الأمر بلطفه وحكمته وحُسن ترتيبه، بأن تطلبوا العير، وهم يطلبون حمايتها منكم، فتهابون كثرتهم ﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ ولكن ليقضى الله ﴿ أَمْرًا ﴾ أي: شأناً قد حُسِمَ وقوعه وتدبيره ونتائجه قبل وقوعه.

وفي هذا دليل على عظمة هذا الأمر، لأنه جاء في سياق النكرة، بما يفيد التعظيم، ثم أكد سبحانه وتعالى أنه أمراً مقضياً منه سبحانه وتعالى ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ فهو أمر قُضي بوقوعه وبنتائجه، فهو كائن متحقق، لا شك ولا ريب فيه، سواء كان من حيث اللقاء، أو الموعد، أو المكان، أو حتى نتائجه، فإنه كان أمراً محسوما من الله تعالى، وهو معنى: ﴿مَفْعُولًا ﴾ ودلت لفظة ﴿ كَانَ ﴾ على الحسم قبل الوقوع، فإن الله تعالى قَدَّره قبل وقوعه، ورتب له وحققه كما أراد عَزَّ وجل، فسبحان الذي دبر وقضى بالكمال كله كما شاء.

فقد كان الطمع في العير، ثم الخيار بين العير وبين الظفر بالعدو، كما قال تعالى في أوائل السورة ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ إما طائفة العير وما تحمله من تجارة قريش، أو أن تظفروا بمشركي قريش الذين خرجوا من مكة لمنع عيرهم وحمايتها. ولو ذهب المسلمون وراء قافلة أبي سفيان لأطبق عليهم العدو من جهة أبي سفيان، ومن جهة جيش قريش. ولكن قضاء الله تعالى وتدبيره أتم وأكمل.

ثم يبين الله تعالى قيام الحجة ووضوحها لمن مات ولمن عاش ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أُثْبِتَت له، وقطعت عذره، وعبرة قد عاينها ورآها ﴿ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ وليعيش من عاش منهم عن حجة لله تعالى قد أُثْبِتَت له، وظهرت لعينه، فعلمها[٢] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والبينة: إقامة الحجة والبرهان، أي ليموت من يموت عن بينة رآها، وعبرة عاينها، فقامت عليه الحجة، وكذلك حياة من يحيا. قال ابن إسحاق: ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه، وقطعت عذره. ويؤمن من آمن على ذلك[٣] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: قال محمد بن

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٢٦)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٢٠٤)
(٣) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨/١٦)

إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه تعالى يقول إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، فيصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي: يستمر على الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره، أنه مبطل، لقيام الحجة عليه ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: يؤمن من آمن عن بينة، أي حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب[١] فتكون حياة من عاش على بينة وحجة وبرهان بأن هذا دين الله تعالى، لما ظهر من الآيات الباهرات في هذه المعركة، وأما من كفر بعدها فما هو إلا مكابر أمام هذه الآيات الباهرة.

ثم يختتم الله تعالى الآية الكريمة ببيان ما يناسب موضوعها من كمال صفاته وأسمائه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فإن الله تعالى ﴿لَسَمِيعٌ﴾ يسمعكم ويسمع غيركم، حين تدعون، وحين تتحدثون، وحين تشكون، ويسمع عدوكم وما يقولون وما يبرمون ويخططون، فلا يخفى عليه شيء مما يقول خلقه، وكذلك فإنه ﴿عَلِيمٌ﴾ فإن الله تعالى يعلم حالكم ويعلم حال عدوكم وحال غيركم، فلا تخفى عليه خافية حتى الْمُضْمَر والمستكين في القلوب، والمعلن بين العباد، وما يُسِرُّ به البعض عن البعض. فهو سميع عليم. مما يفيد الترغيب في التوكل على الله تعالى، وفي الخوف منه عَزَّ وجل.

ثم يُذَكِّرُ اللهُ تعالى بما امتن به على رسوله وعلى المؤمنين ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ فمن فضل الله تعالى على المؤمنين أن أرى اللهُ تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في منامه قلة عدد عدوهم، فأخبر به أصحابه، فتجاسرت قلوبهم وقويت، فقابلوا عدوهم بجراءة وجسارة وشجاعة، مما يفيد أن لله تعالى أبواباً ومفاتيحاً قادرة على تحقيق ما يريد تحقيقه، فقد يغرس في قلب العبد شجاعة، أو تجاسراً أو تعاطفاً أو خوفاً فيتمكن العبد بذلك مما أعانه الله تعالى عليه، أو ليحجم عن أمر له فيه مصلحة. مما يُوجب التوكل على الله تعالى وسؤاله التوفيق. ثم يبين الله تبارك وتعالى كيف سيكون حال المؤمنين لو أراهم عدوهم على كثرتهم ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ ولو أراك ربك عدوك وعدوهم على حقيقة كثرتهم لحصل الفشل والخوف والرعب، وما يتبعه من الجبن وانقباض النفس عن ملاقاة العدو ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ ولحصل الاختلاف بينكم في مواجهة العدو ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ ولكن الله تعالى بحكمته وقدرته سلمهم من أسباب الفشل، وسلمهم من التنازع، بما رأى صلى الله عليه وسلم من الرؤيا، فأظفركم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٢٧)

وأظهركم على عدوكم، ثم ينوه الله تعالى بكمال علمه ودقته ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فهو يعلم ما تكتنفه وتضمره وتُخفيه القلوب. فبعلمه العظيم سبحانه وتعالى عالج ما تكتنفه الصدور، وما يمكن أن يكون. وفي هذا توجيه للعباد بأن يلجؤوا إلى الله تعالى في جميع شؤونهم، فهو يعلم بعلمه وقدرته كيف يُصَرّف عبده، فقد يصرفه عن الشيء، وقد يدفعه للشيء بحكمته، فهو على كل شيء قدير.

ثم يبين الله تعالى معيته وتصريفه لعباده عند لقاء العدو، فجعلهم يرون عدوهم عند الحقيقة على غير الحقيقة ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾ فيرون عدوهم أثناء الاقتتال قليل العدد، مما يحقق ويؤدي إلى تجاسر القلوب، ويُهَوِّن عليهم القتال، وتأخذهم الشجاعة نحو قتال العدو، حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قُلِّلُوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم، فقلنا: كم هم؟ قال: ألفاً. وفي رواية: قُللوا في أعيننا حتى قلتُ لرجل: أتراهم يكونون مائة[١] وفي نفس الأمر تحدث نفس الرؤيا عند العدو، فيرون المؤمنين أقل مما هم عليه، ولكن تأثيرها وأثرها كان لصالح المؤمنين ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ فيرى المشركون عدد المسلمين أقل مما هم عليه، وهذا يجعلهم لا يكترثون بعدد المؤمنين من حيث الاستعداد والمنازلة، وربما يأخذهم الغرور الذي يؤدي إلى الفشل. فالرؤيا واحدة في تماثلها بين الفريقين، ولكن أثر الرؤيا والتقييم متباين بين الفريقين، ليصُبَّ كلا الأمرين في صالح المؤمنين، فالفعل واحد، وهو تقليل العدد الحقيقي في أعين الطرفين – المؤمنين والمشركين – وفعل الأثر متباين تمام التباين، فعند المشركين أحدث لديهم الغرور والتهاون بشأن المؤمنين، واستهانتهم بهم وبعددهم، وعند المؤمنين أحدث إغراءً وشجاعة وإقداماً.

وقد بلغ بالمشركين من الغرور أن أبا جهل يقول: الآن إذا برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم، وقال: يا قوم لا تقتلوهم بالسلاح، ولكن خذوهم أخذاً، فاربطوهم بالحبال، يقول ذلك من القدرة في نفسه[٢] مما يدل على عظمة قدرة الله تعالى، فيرى ابن مسعود رضي الله عنه الألف وكأنهم مائة رجل. وهم يرون الثلاثمائة من المؤمنين عدد يسير، أقل من الحقيقة.

ومن دقة البيان وقوة القدرة الربانية أن جعل الله تعالى الرؤيا حاصلة في العين، على خلاف الواقع ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾ فهي آية من آيات الله تعالى ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ وكل هذه الأسباب لِيُمْضِي الله تعالى ما قضى من الأمر قبل وقوعه، فيقضيه على

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٢١١-٢١٢)

(٢) المرجع السابق (١١/٢١٢)

المشيئة التي شاءها سبحانه وتعالى. مما يفيد أن الله تعالى إذا أراد تحقيق أمرٍ لعبد من عباده فلا تحجبه الموانع، فليس أمام إرادة الله تعالى مانع ولا موانع تحول دون قضائه، فمن كان الله تعالى وليه فلن يهزمه شيء، ومن أراد الله أن يعطيه فلن يمنعه أحد، ومن أراد الله تعالى أن يمنعه فلن تنفعه كثرته وقوته وأسبابه، فإن الأسباب طواعية لله تعالى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فجميع أمور العباد والأشياء كلها راجعة لما يريده الله تعالى ويقضي به، فهو الذي ترجع إليه أمورهم، فيحكم فيهم وفيها بعدله الذي لا يظلم فيه أحداً أبداً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا
يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ
وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا
لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩﴾

يوجه الله تعالى عباده المؤمنين بالثبات عند لقاء العدو، مع المواظبة عل ذكره سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فقد فبدأ سبحانه وتعالى الخطاب بياء النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ليفيد شد ولفت الانتباه لأمر عظيم، يلزمكم أن تعطوا اهتمامكم وسمعكم له، وأن تأتمروا به. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وقد سماهم الله تعالى بالمؤمنين، فيا من آمنتم بالله ورسوله وبما جاءكم من الحق، عليكم الائتمار بما آمُرُكم به، وهو ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فالتزموا عند محاربتكم عدوكم بالثبات والصبر، وقاتلوهم بثبات وشجاعة، فلا تجبنوا عند اللقاء، ولا تنهزموا، ولا تولوهم الأدبار. مما يستلزم أن تتشجعوا على الثبات ورباطة الجأش، مشتغلين بذكر الله تعالى، وأن يكون هذا الاشتغال كثيراً، بما يفيد الكثرة المنافية للقلة، بحيث يكون أغلب وقتكم في تحصيل ذكر الله تعالى والانشغال به. مما يفيد أن ذكر الله تعالى قوة يستعين بها المؤمن على الثبات في الشدائد، وأن في ذكر الله تعالى قوة للقلب، وعلاج له من الاضطراب والخوف، فبالذكر يزول الخوف والاضطراب الذي قد يحصل عند الشدائد. ويتحقق به النصر والفوز.

ثم يخبر الله تعالى بالنتيجة التي هي حصول الفوز والفلاح ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لعلكم بإنفاذ ما أمرتكم به تتحصلون على الفلاح، أي: فاذكروا الله كثيراً رجاء الحصول على الفلاح، وهو الظفر والفوز بالانتصار على العدو، مما يفيد أهمية الإكثار من ذكر الله تعالى عموماً وخاصة عند الشدائد، فإن في ذكر الله تعالى ما يحقق دفع الشدائد ومحوها وإزالتها، ومحو ضررها.

وهذا يفيد في أهمية التوجيه، وأهمية التذكير، وأن على القائد أن يُذَكِّر من معه بكلام الله تعالى، وبمضمونه، ويحثهم على ذكر الله تعالى، وباستصحاب فائدة ذلك، فإن في ذكر الله تعالى معالجة لعموم الشدائد بجميع أنواعها، فيتحلى المؤمن بالثبات والعزيمة التي أساسها الصبر، مع الحرص على كثرة ذكر الله تعالى في عموم أوقاته، وخاصة عند الشدائد، فإنها دافعة للبلاء، وعلاج له. ومما يُستفاد من هذا التوجيه الكريم، أهمية الثبات في الحق، وفي الأداء والتحصيل، مع كثرة ذكر الله تعالى، فإنها فاعلة بتوفيقه عَزَّ وجل. وإذا كان الله تعالى يأمر المؤمنين بذكره سبحانه وتعالى كثيراً عند مواجهة العدو، فكيف يجب أن يكون حال المسلم في الرخاء، فإن من الأحرى والأجدر أن يكون أدْوَم على ذلك. كما يفيد هذا النص الكريم أن في الجمع بين الثبات وكثرة ذكر الله تعالى ما يحقق الفلاح والفوز والنجاح.

ثم يعطف الله سبحانه وتعالى على ما نادى به المؤمنين من الثبات وكثرة الذكر، الأمر بأن يطيعوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأن لا يختلفوا فيما بينهم، وأن يصبروا، فهذه الخمس هي ركائز الانتصار وتحقيق الفلاح ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيبين هذا التوجيه الكريم ركائز الفوز والانتصار، فمع الثبات وكثرة ذكر الله تعالى يجب طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأن لا يختلفوا فيما بينهم في شيء، بأن يكونوا على أمر واحد، الذي هو ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ثم بعد الأمر بالطاعة ينهى سبحانه وتعالى عن التنازع ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ فلا تختلفوا في الرأي، وتتصلبوا عنده، فتختلف القلوب، فيفضي الأمر بكم إلى الفرقة والتباعد، ولكن تلاينوا بما يحقق التوافق الذي يكون بالتشاور، وتغليب الطاعة على الانفراد بالرأي والقرار، وقد وَحَّد سبحانه وتعالى تلك الطاعة بأن تكون لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وقد وحد الله تعالى أمر الطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، مما يفيد أهمية وحدة الأمر والنهي، ووحدة القيادة التي هي لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن فوائد السياق أن الله تعالى لم يقل وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فيكرر أمر الطاعة بل وَحَّد فعل الأمر بالطاعة ولم يكرره ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ليؤكد وحدة الأمر، فإن طاعة الرسول صلى الله

عليه وسلم فيما يأمر وينهى هي طاعة وامتثال لله تعالى. مما يفيد التحذير من عدم الطاعة ومن الاختلاف، فإنه لا يسعهم الاختلاف، بل يجب الملاينة فيما بينهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وإن لم يفعلوا ذلك فإنه سيحصل لهم أمران: الأول: الفشل: ﴿ فَتَفْشَلُواْ ﴾ الذي هو ضد الفوز والفلاح وتحقيق النصر، والفشل هو: الضعف مع الجبن. فتضعف الهمم، ويحصل الخور، مما يترتب عليه حصول الأمر الثاني الذي هو ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ فتذهب قوتكم وشدتكم وبأسكم، فيذهب عنكم نصركم، فتضمحل قوة الانتصار وتزول أسبابه، فتصبح لا حقيقة مؤثرة لجمعكم. مما يفيد أهمية الملاينة مع الجماعة أو مع الرفقة، وسواء في الجيش أو في غيرها، وأن توفيق الله تعالى وتسديده مع تضامن الجماعة، وأن في التنازع ما يحقق فشل امرها.

ثم يأمر الله تعالى بالتحلي بالركيزة الخامسة، التي هي غاية في الأهمية، ألا وهي ركيزة الصبر ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ لأن الصبر متطلب أساس للحيلولة دون وقوع النزاع، وأيضاً مهم في الثبات عند لقاء العدو، ومهم في امتثال الطاعة، والصبر من لوازم انتصار النفس على شرورها، وهي القوة التي يتقوى بها المؤمن على تحمل ما يكره وما لا يحب، أو ما لا يراه مناسباً في نظره. ثم يثبت الله تعالى لهم أن معيته لمن صبر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وفي هذا بيان لمنفعة الصبر بأقوى وأعز ما يمكن أن يكون للصابر من حظوة معية الله تعالى له، وإعانته عَزَّ وجل لمن امتثل أمره، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أهمية أن يتحلى المؤمن بالصبر في جميع أحواله، حتى يفوز بمعية الله تعالى له وتسديده. والصبر هو حبس النفس عن الجزع، باحتمال الحال التي هو فيها، إذ ليس هناك أعظم من معية الله تعالى لمن تحلى بالصبر.

وينهى الله تعالى المؤمنين عن مسلك المشركين بأسلوب التشبيه، ليتجنبوا أخلاقهم ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فينهاهم عن أن يتمثلوا ويتشبهوا بمن كانت صفتهم في الخروج للعدو بطراً ورياء، ويصدون عن سبيله سبحانه وتعالى، فإن هذه الصفات الثلاث يلزمكم اجتنابها، وهو نهي وجوب وتحذير، مما يبين خطورة البطر والرياء وصد الناس عن سبيله بأي وسيلة كانت.

فالصفة الأولى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال المفسرون: هم أبو جهل ومن خرج معه من مكة، خرجوا ليدافعوا عن عيرهم التي كانت مع أبي سفيان، ومعهم القيان والمعازف، وهم يشربون الخمور. فلما رأي أبو سفيان أنه قد أحرز ما معه، كتب إليهم: أني قد أحرزت أموالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نفعل حتى نَرِد بدراً، فنقيم ثلاثاً، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتسمع بنا العرب، فلا يزال يهابوننا، فساروا إلى بدر، فكانت الواقعة، فَسُقُوا كؤوس

المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، وأما البطر ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا ﴾ فهو الطغيان في النعم، وترك شكرها، وأما الرياء ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ العمل من أجل رؤية الناس. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وسبيل الله ها هنا دينه[١] مما يفيد التحذير من البطر ومظاهره التي هي الطغيان في النعم، ومجاوزة الحد فيها، وترك شكرها، واستخدامها في لمعاصي. وكذلك محبة المفاخرة والتباهي بالنعم، والخروج بها من العمل الذي يجب أن يكون خالصاً لله تعالى ليصبح رياء، مما يؤكد عملياً أهمية الإخلاص لله تعالى، وأن الرياء مبغوض عند الله تعالى، ومخرج للعمل عن الإخلاص، وأنه يحبط العمل، وأن الإخلاص يورد فاعله الخير، لأنه مما يحبه الله تعالى ويرضاه. وكذلك في البيان الكريم ما يفيد التشنيع على مسلك المشركين، بأن فعلهم كان لمحاربة دين الله تعالى، مما يلزم المؤمن ألا يكون سبباً في محاربة دين الله تعالى بأي مسلك يسلكه.

ثم يختتم الله تعالى توجيهه الكريم ببيان تمام وكمال علمه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ والإحاطة تفيد تمام العلم وكماله بما يعملون من أعمال، فلا يخفى عليه عَزَّ وجل منها شيء، فيعاملهم بما يناسب أعمالهم، مما يفيد التحذير للمشركين من انتقامه، والبشارة للمؤمنين بأنه يعلم ما لا تعلمون من عمل أعدائكم، فيتولى عقابهم والرد عليهم، ويعلم منكم طاعتكم فيثيبكم عليها. وأن الذي يلزمكم هو الائتمار بأمره سبحانه وتعالى، وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين سبحانه وتعالى حال المشركين مع الشيطان ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَعۡمَـٰلَهُمۡ ﴾ أي: حَسَّن لهم الشيطان ما هم عليه وما أقدموا عليه من عمل، فأطمعهم في مبتغاهم ومرادهم، وبالتالي أزال عنهم بتحسين الشر لهم كل ما يخشونه ويهابونه، فقوية عزائمهم لمصيرهم، وركبوا المفاخرة والتفاخر والمباهاة. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين، معه رايته في صورة رجل من بني مُدْلِجٍ، في صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم، فقال الشيطان للمشركين ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ ﴾ فلما اصطفَّ الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب، فرمى بها وجوه المشركين، فَولَّوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع إبليس يده، فولى مدبراً وشِعتُه، فقال الرجل: يا سراقة أتزعمُ أنك لنا جار قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٤٩)

بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ وذلك حين رأى الملائكة[١]

مما يفيد خطورة الشيطان، وأنه قد يتمثل في صورة إنسان، وأنه خذول، مخذول ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ ﴾ وأنه يسعى للفساد والإفساد ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ ﴾ وأنه لا يستطيع مواجهة الملائكة ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ ﴾ وأن الله تعالى مَكَّنه من رؤية ما لا يراه الإنسان ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ ﴾ فقد رأى إبليس وأعوانه الملائكة، وأنه يخاف منهم ويهابهم، ولا يستطيع مواجهتهم، حيث أدبر عندما رأى جبريل عليه السلام ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ ﴾ وأن الشيطان له من القدرة ما يوجب الحذر منه، وذلك بالإيمان والتقوى ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ ﴾ ومن الفوائد: أن الملائكة يسخرهم الله تعالى للمؤمنين، وأن الشياطين أولياء للكافرين، والملائكة أولياء المؤمنين.

وقال الشيطان معتذراً لهم، بأنه يخاف الله تعالى ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

قال قتادة رضي الله عنه: وكذب عدو الله في قوله ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له بهم، وقال عطاء: معناه: إني أخاف الله أن يهلكني. وقال ابن الأنباري: لما رأى نزول الملائكة خاف أن تكون القيامة، فيكون انتهاء انظاره، فيقع به العذاب[٢] ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ وهذا بيان بأن عذاب الله تعالى شديد البأس، وشديد الوقوع والأثر، وسواء قال به إبليس، أو أن تكون جملة مستأنفة من جهة الله تعالى.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٢٢١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٥٠)

ثم يصف الله تعالى ويكشف حال وموقف المنافقين، وهم الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ وكذلك يكشف الله تعالى موقف الذين في قلوبهم مرض، وهم المشككون المرتابون ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ فلم يتعزز وينغرس ويتأكد الإيمان في قلوبهم، وقد سمى الله تعالى حالهم بحال المرض، فيه صحة، ولكن ينازعه المرض، فينازع إيمانهم الريبة والشك، وهذا وصف في غاية الدقة لمن يعتري قلبه شيء من الشك، بأنه في حالة مرض، فإما أن يقوى الجسم وتقوى العافية على المرض بالأدوية الإيمانية، وإما أن يعلو المرض فيقتل الجسد، وينتصر عليه، مما يفيد أهمية الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى، وتقوية الإيمان بكثرة الطاعة والتأمل في ملكوت الله وتعالى، وآياته القرآنية، وآياته المبثوثة في الكون.

فيقول هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ أي: يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين، فيعنون بذلك المؤمنين الذين خرجوا إلى بدر، بأنهم مغرورون بدينهم، أي مخدوعين بدينهم، وذلك بتوقعهم وتوهمهم تحصيل الظفر على العدو، وتحقيق المنفعة التي لا يمكن تحصيلها كما يتصورون. فنظرة وتقييم المنافقين والذين في قلوبهم مرض قائمة على الإمكانات والمحسوسات، فلم تتجاوزا إلى الغيبيات، وإلى قدرة الله تعالى في قلب الموازين والقوى. فيبين الله تعالى إزاء ذلك الوهم، ما لا يدركه المنافق ومن في قلبه مرض ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فإن من يعتمد على الله تعالى فإنه قد اعتمد على عزيز، فلا يعجزه شيء، وأنه عزيز لا يمتنع عليه شيء، وعزيز لا يُغَالبه شيء، فهو الذي ذل له كل شيء، ولانت لقوته وعزته الشدائد، فإنه العزيز الذي يقهر ولا يُقهر، وأما الحكيم فهو الذي اتصف بكمال الحكمة، والذي يضع الأمور موضعها، والْمُحْكِمِ للأشياء والأمور، فلا يفوت عليه شيء، ولا يحصل منه الخطأ ولا الزلة، وهو المستوفي لكمال الحكمة، فهو الذي يدبر الأمور بحكمة واقتدار، وهو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا حكم أفضل من حكمه سبحانه وتعالى. فمن يتوكل على الله تعالى فقد اعتمد واستند على عزيز وحكيم، فلن يكون مخذولاً أبداً، بل إن التسديد منه له، والتوفيق منه له، والنصر والمعونة والعون منه سبحانه وتعالى للمتوكل عليه، الذي وثق بجنابه فأجابه. اللهم اجعلنا ممن توكل عليك حق التوكل فكفيته.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ

بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان حال الكافرين عند موتهم وانتزاع أرواحهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ يخاطب الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، ليعلم كل من يسمع كلامه سبحانه وتعالى بالأمر الذي يواجه الكافر عند انتزاع روحه، بأن أمره عظيم فضيع، لا يشاهده غير الذي هو في حالة الوفاة، فلو رأيت لرأيت أمراً عظيماً مذهلاً، مما يفيد أن الميت عند موته ومفارقة روحه له، يمر بأمور لا يعلمها إلا الله تعالى، إذ تقوم ملائكة العذاب بما بينه الله تعالى، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصصه الله تعالى بأهل بدر.... أي باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم، إذا استصعبت أنفسهم وامتنعت من الخروج من الأجساد، أن تخرج قهراً. وذلك إذا بشروهم بالعذاب والغضب من الله تعالى، كما في حديث البراء أن مَلَكَ الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة، يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول، فيخرج معها العروق والعصب، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، فجزاكم الله بهذا الجزاء[1] وقد أظهر الله تعالى ما قدموه بحال أعمال الأيدي ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ليفيد المحسوس، لأنه الأظهر والْمُظْهِر لما يقولون به قولاً وعملاً، فأقوالهم وتهديداتهم بمثابة الأعمال المحسوسة، لما نجم عنها من إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه، وبما قاموا به من أعمال الكفر، ومنها التكذيب، وعبادة الأصنام، فعذابكم بسبب ما قدمت أيديكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي: لا يظلم أحداً من خلقه. فأعمال الكافر وأقواله مرتكزة على المعصية والضلال.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٣٢)

ومن الإهانة لهم وسُوء العذاب والمصير أن الملائكة تضربهم على وجوههم التي تمثل شرف ومنزلة وقيمة الإنسان ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ ومن مزيد الإذلال أنهم يضربون أدبارهم من الخلف ﴿ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ أي: مؤخرتهم، وتقول الملائكة لهم ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وهو اشتعال النار واضطرامها.

وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى: وقيل إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم، والذوق قد يكون محسوساً، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، وأصله من الذوق بالفم[1] فأعطى النص الكريم دلالتين: الأولى: قول الملائكة لهم حال ضرب وجوههم وأدبارهم، على أن هذه مقدمات العذاب الحارق، الذي هو عذاب النار، ووعيد لهم بعذاب الآخرة. والدلالة الثانية: هو عند دخولهم جهنم، فيقول لهم خزنة جهنم ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ مما يفيد بلاغة النص الكريم الذي استوفى دلالتين تقعان للكافر عند موته وعند دخوله جهنم.

ومن فوائد النص الكريم ودلالاته: أنه سبحانه وتعالى كَنَّا بأدبارهم عن مؤخرتهم واستهم، فعن مجاهد رحمه الله تعالى في قوله تعالى ﴿ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ أي: استاهم، ولكنه كريم، يُكني سبحانه وتعالى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة، فضربوا أدبارهم. وعن الحسن رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشِّراك، قال: ما ذاك؟ قال (ضرب الملائكة)[2] وهذه فائدة أخرى بأن دل النص على أمرين: الأول: عام لكل كافر، كما ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى، والثاني: أن فيه ذِكْرٌ لما حصل للمشركين يوم بدر، وقد ثبت مقاتلة الملائكة مع المؤمنين، فكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة، فضربوا أدبارهم. وهذا من فيض دلالة النص الكريم، ومن بلاغة إعجازه التي تضمنها سياقه.

ويعلم الله تعالى عباده ويخبرهم بأن حال المقتولين ببدر كحال وعادة آل فرعون ومن كان قبلهم من الأمم المكذبة بالله تعالى وبِرُسُلِه ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فدلالة ﴿ كَدَأْبِ ﴾ تعني: كعادة وسيرة ونهج وطريقة، فإن وجه الشبه بينهم هو الكفر بآيات الله تعالى وذلك بإنكارها، إذ ﴿ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ فجحدوا بالحجج والبراهين التي لا مراء ولا جدال فيها، مما يدل على أن الكفر ملة واحدة

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣١٧/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٠/١١-٢٣١)

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فأخذ الله تعالى المكذبين بذنوبهم فأهلكهم بالعذاب الذي أفناهم، وقد وقع لكفار قريش من القتل والأسر، بمثل ما وقع لغيرهم ولِمَن بعدهم ممن حارب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم عَلَّل اللهُ تعالى إهلاكه لهم، بأنه بسبب ذنوبهم، وليس ظلماً لهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ثم وصف سبحانه وتعالى عقوبته لمن عصاه بأنها شديدة الأخذ وشديدة الألم والأثر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لأن من صفاته سبحانه وتعالى العظيمة الجليلة: القوة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ ووصف عذابه بما يناسب قوته وقدرته عَزَّ وجل بأنه شديد ﴿ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فقرر نوع عذابه بما يناسب عزته وقوته سبحانه وتعالى، وبما يستحقه أهل الكفر.

وفي هذا زجر وترهيب للكافرين من العقوبة التي ستطول من يكفر به وبرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من الآيات البينات. وكذلك تأكيد وتغليظ الزجر والنهي ببيان صفة قوته سبحانه وتعالى، وبيان شدة العذاب، ولعل في الزجر والترهيب ما يدفعهم للتعقل والتفكر والدخول في دين الله تعالى.

ثم يأتي المزيد من البيان التحذيري من الله تعالى، وذلك ببيان علة ما وقع من العذاب، ليؤكد عدله سبحانه وتعالى، بأنه لا يعذب أحداً إلا بما كسب ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ فهذا بيان لقاعدة الإنعام والعناية الربانية، فقد ابتدأ الله تعالى بيانه ببيان سنته في خلقه، بأنه لا يغير نعمة أنعمها على عباده بسلبها عنهم إلا بسبب تبديلهم لها، وتغييرها إلى ما يضاد الذي خُلقت له. فمن حكمته عَزَّ وجل أنه يرسل الأنبياء والمرسلين، ليرشدوا الأقوام للصحيح والصواب، وهذه نعمة عظيمة لأنها أساس بقاء النعمة، وأساس لدخول الجنة والنجاة من عذاب الدنيا والآخرة، فإذا غيروا من حال أنفسهم بالطاعة والامتثال بقية عليهم النعمة، وإن لم يغيروا أنفسهم بإصلاحها، غير الله تعالى عليهم النعمة المادية والمعنوية.

كما أفاد النص الكريم بأن إنعام الله تعالى عام وشامل لجميع مفرداته وأنواعه ﴿ نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ مما يفيد أنه سبحانه وتعالى قد اعتنى بمصالحهم جميعاً، حيث جاء النص الكريم عاماً، ليستوفي الجميع، وأن الأصل هو الإنعام من الله تبارك وتعالى، فقد نسب إنعام النعمة له عَزَّ وجل، وأن التغيير من الله تعالى هو بسبب تبديل وتغيير المخلوق للنعمة، فيكفر بها ويبطر، ويستخدمها في غير ما خُلِقَت له. وفي هذا بيان سبب ما حل وحاق بآل فرعون ومن كفر من الأمم التي بطرت معيشتها، فكفرت بأنعم الله تعالى، ومنهم من كفر من قريش وغيرهم، وفي هذا كذلك من الفوائد بيان سُبُل حفظ ما أنعم الله تعالى به على العباد، وهي الطاعة والامتثال والشكر لله تعالى. وفيه موعظة لقريش ولغيرهم، وموعظة مستمرة ما استمرت الحياة. مما يفيد

كذلك تربية النفس على استدامة النعمة بالشكر، والعناية بها، وعدم استخدامها في المعصية، وعدم البطر بها على أي وجه كان.

ثم يختتم الله تبارك وتعالى الآية العظيمة بقوله عزَّ وجل ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع ما تقولون، ويعلم ما تفعلون، فلا يغيب عنه شيء من أحوالكم، وفي هذا ترغيب وترهيب، ترغيب في الطاعة، وترهيب من المعصية، وفيه تعليم بأن يستحضر المؤمن في قلبه أن الله تعالى يراه ويسمعه، فلا يغيب عنه شيء من أفعال العباد وأقوالهم.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من الإيضاح عن تغيير النعمة ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ يضرب الله تعالى المثل بآل فرعون والذين من قبلهم من الأمم في تعاملهم مع نعمة الله عزَّ وجل، فقد كذبوا بنعمة آيات الله تعالى التي فيها سعادتهم، فغيروا النعمة من القبول والطاعة إلى الكفر والتكذيب والمعصية بها. ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ فأهلكهم الله تعالى بذنوبهم، فكان الهلاك لهم بكفرهم وتغييرهم لنعم الله تعالى، فأهلكهم الله تعالى بذنوبهم التي جنوا بها على أنفسهم. فكان هلاكهم بأن أغرقهم الله تعالى في البحر ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ فجميع المذكورين الذين اخذهم العذاب كانوا ظالمين لنعمة الله تعالى، فما قبلوها ورعوها حق رعايتها.

وهذه الآية الكريمة ليست تكراراً للآية السابقة لها، التي هي ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ليس هذا بتكرير، لأن الأولى للعادة في التكذيب، والثاني للعادة في التغيير(١) ومع ذلك فإن الآية الثانية تفيد تأكيد الإهلاك لهم بالذنوب ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ وكذلك فيها بيان صورة الإهلاك بأنه بالغرق ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وفي الأولى: الكفر والجحود بآيات الله تعالى، والكفر هو نقيض الإيمان ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وفي الآية الثانية: بيان لتكذيبهم بالرُّسل، وبما معهم من الآيات ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ والكفر جحود الوحدانية أو دين الله تعالى، أو النبوة والرسالة، والتكذيب عدم التصديق، فلم يصدقوا

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٢١/٨)

آيات الله تعالى، فنعتوها ووصفوها بالكذب والإنكار لها. فأبانت الدلالتان أن كفرهم كان بعدم التصديق، وذلك بتكذيبهم آيات الله تعالى، وبالرسل وبما جاؤوا به من الحجج والبراهين. فكفرهم كفر جحود وتكذيب، فأوضحت الدلالتان نوع كفرهم. وهذا من فوائد دلالة النصين، ودلالة فوارق الألفاظ في النصين الكريمين. مما يبين دقائق البيان في كتاب الله تعالى.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾

يخبر الله تعالى عن حال الكافرين بالوصف المناسب لهم ولحالهم ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فإن شر ما دَبَّ على الأرض مما خلق الله سبحانه وتعالى هم الذين كفروا، الذين اتصفوا بعدم الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ فصفتهم أنهم كلما ابرمت عهداً معهم نقضوه في كل مرة، فليس لمرة واحدة، بل صفة متكررة منهم، فتلبست بهم، وأصبحت صفة من صفاتهم، بما يفيد أن نقض العهود والمواثيق صفة لهم ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ فليس لديهم تقوى تمنعهم من نقض العهود والمواثيق، مما يفيد ويبين أن قوة التقوى هي القوة التي تحول بين العهود وبين نقضها، فأما من انتفت منهم التقوى فلا مكان للوفاء بالمواثيق عندهم، لأن التقوى هي مخافة الله تعالى.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في معناها: أي: يا محمد: أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك محارباً لك، كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد، ثم ينقضون عهودهم

ومواثيقهم، كلما عاهدوا دافعوك وحاربوك، وظاهروا عليك، وهم لا يتقون الله، ولا يخافون في فعلهم ذلك أن يوقع بهم وقعة تجتاحهم وتهلكهم[١] قال المفسرون: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد يهود قريظة أن لا يحاربوه، ولا يعاونوا عليه، فنقضوا العهد، وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا. ثم عاهدوه الثانية فنقضوا ومالؤوا الكفار يوم الخندق، وكتب كعب بن الأشرف إلى مكة يوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢]

وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن حرف **(من)** في قوله تعالى ﴿ مِنۡهُمۡ ﴾ للتبعيض، لأن العهد إنما يجري مع أشرافهم[٣] وهذا من عدل الله تعالى في الحكم، وقد قال عَزَّ وجل في سورة آل عمران ﴿ **وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥** ﴾

وهذا يعطي صورة لليهود خصوصاً، وللكافرين عموماً، أن المواثيق لا تجدي مع بعضهم، مما يبين أن الذي يجدي معهم حاجتهم وضعفهم، وأنه لا عهد لهم فيما لا مصلحة لهم، ولا عهد لهم إذا تغيرت المصالح، وأنه لا ثقة لهم عند انتهاء المصالح. فإنهم أصحاب منافع ليس غير ذلك، وأنهم ينقلبون ويتغيرون بحسب ما يتوقعون من المصالح المادية.

ويخبر الله تعالى بمنهجية التعامل مع الكافرين الناقضين لعهودهم، بأن يكون التعامل معهم بأحد منهجيتين: الأولى: ﴿ **فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ** ﴾ أي: في حالة الظفر بهم في الحرب نَكِّل بهم ﴿ **فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ أي: نكل بهم، قاله ابن عباس والحسن البصري والضحاك والسدي وعطاء الخرساني وابن عيينة، ومعناه غَلِّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء من

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٥/١١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٣/٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١/٨)

العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ وقال السدي: لعلهم يحذرون أن ينكثوا، فيُصنع بهم مثل ذلك[١]

وأما الخيار الآخر فهو ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ ففي حال التخوف من غشهم وغدرهم ونقضهم للعهد، أعلمهم أنك نقضت عهدهم، قال المفسرون: الخوف هاهنا بمعنى العلم، والمعنى إن علمت من قوم قد عاهدتهم خيانة، وهي نقض عهد[٢] ﴿ فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يكونوا على علم بذلك، فيعرفون أنك حرب عليهم، وأنه لا عهد بينك وبينهم، فاطرح العهد الذي بينك وبينهم على نهج وطريق واضح، فيخبرهم إخباراً واضحاً ظاهراً بذلك، وأن لا يقاتلهم ويناجزهم الحرب بغتة.

وتقتضي دلالة ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ العدل معهم، فلا يأخذهم بغتة، بل عدلاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ وفي هذا بيان وتحذير من الله تعالى للخائن حتى مع العدو، وأنه مبغض له، وقد ورد نفي المحبة للخائن عاماً، بما يفيد أن الله تعالى لا يحب الخيانة من أي طرف وعلى أي وجه، فلا يحبها من مسلم ولا من معاهد، فكيف إذا كانت الخيانة بين مسلمين، فإنها توجب بغض الله تعالى، الذي تنتفي به محبته إن كان مؤمناً. ولذلك يجب أن تكون هذه قاعدة في حياة المسلم.

وقد أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يكون نقض العهد مبني على أسباب وعلم، فالأول: العلم الذي ارتبط بالخوف من نقضهم ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ فهناك دلائل واضحة ومعلومة بأنهم يكيدون بخيانة ناقضة للعهد، والأمر الثاني: ﴿ فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ بأن تخبرهم، ولا تأخذهم على غرة، بل تُعْلِمُهُم بذلك، فيعرفون أنه لا عهد لكم معهم، وهذا منهج عام مع كل معاهد قد تبينت منه الخيانة.

ومن فوائد قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ أنها قاعدة للمؤمن تجاه ما يواجه في حياته من خداع النفس، وخداع الشهوات، فإن قادته نفسه إلى التحايل على أحد فيتذكر قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ وإن همت نفسه بخيانة في مهنته، فليتذكر قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ وإن استثارته

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٣٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٥٣)

خيانة في مال فليتذكر قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ وإن واجهه من مالت نفسه للخيانة، نصحه بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ فإنه قاعدة علاجية للنفس، وموعظة للآخرين.

ويخبر الله تعالى عن الكافرين الذين فاتوا من القتل، بأنه ليس عجزاً عنهم، فإن لله الحكمة البالغة في فواتهم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ فلا يعتقد ولا يحسبن الذين كفروا بفواتهم من القتل والعقوبة أنهم فاتوا علينا، فلم نقدر عليهم، بل إنهم تحت سلطتنا وقهرنا وسلطاننا، فلم يُعجزونا في أخذهم بالعقوبة، ولكن لله تعالى حكمة فيما قضى ويقضي. مما يفيد ألا يعتقد مَن أَجَّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ أنه قد أفلت من العقوبة، فإنه ليس بمعجز على الله تعالى، ولكن لله حكمة فيما يذر ويمهل. وفي هذا تهديد للكافرين الذين ينجون بقدرة الله تعالى من العقوبة في الحرب أو في غيرها.

ثم يأمر الله تعالى المؤمنين بالإعداد والتخطيط والتنظيم وبجميع سُبُل القوة لمواجهة الكافرين ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: استعدوا بكل ما يمكنكم من القوة التي يمكن أن تتقووا بها على محاربة العدو، ثم أفرد سبحانه وتعالى الخيل من عموم القوة والوسائل ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ باعتبار أنها الوسيلة الأولى ذلك الوقت، ويؤخذ غيرها بالقياس عليها. ثم ذكر عَزَّ وجل علة الإعداد والاستعداد، فأول ذلك هو: إخافة عدو الله تبارك وتعالى ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ تُخِيفون وتُرْعِبُون عدو الله وعدوكم، وكان آنذاك كفار قريش والعرب، وأما العلة الثانية للاستعداد بالقوة لغيرهم: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فهناك آخرين غير المعروفين الظاهرين لكم، فإن علمكم قاصر عن بلوغهم، ولكن الله تعالى يعلمهم، وهذا يشمل كل من كان يستعد لمقاتلة المسلمين، ويتربص بهم، ممن لا يتوقعهم المسلمون، من غير تحديد ولا تعيين، مما يفيد كمال علم الله تعالى، وقصور علم البشر. وأهمية الاستعداد للمجهولين من الأعداء، وأن تكون الأمة المسلمة حذرة من سطوة أعداء الدين.

ومن دقائق البيان الكريم أن وصف الله تبارك وتعالى الكفرة بأنهم أعداء لربهم عَزَّ في علاه، وكذلك هم أعداء لكم أيها المؤمنون ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ مما يفيد أن مَن كفر فقد كان عدواً لدين الله تعالى، ومن كان عدواً لدينه جَلَّ جلاله فهو عدو للمؤمنين. مما يبين ويظهر توافق ووحدة العداء، وأن الله تعالى مع المؤمنين على الكافرين.

ثم يحثهم الله تعالى على الإنفاق في هذا الاستعداد ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ فسمى الله تعالى الوجه الذي ينفقون فيه أموالهم أنه ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فإن الإنفاق في مرفأ الجهاد هو في سبيل الله تعالى، كما حث على الإنفاق بقدر الاستطاعة ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ ﴾ لتفيد التبعيض، حتى وإن كان يسيراً، مما يفيد أن الله تعالى يستحث ويشجع ولا يكلف نفساً إلا وسعها، وأنه يجازي حتى على أقل ما يمكن من الإنفاق والصدقة. وأن هذا الإنفاق ﴿ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ فيجازيكم على ما أنفقتم في سبيله بالوفاء التام كاملاً، لا نقص فيه، بل يؤكده سبحانه وتعالى بأنه هو الغني الذي لا يُظلم أحدٌ في ثواب وأجر ما أنفق من قليل أو كثير ﴿ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ يُستكمل لكم ﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ من غير ظلم لكم أبداً. ووفاء الله تعالى يتجاوز إنفاق العباد، لأنه كريم، والكون ملكه، لا شريك له.

وهذا يعطي منهجية للقائد والحاكم في كيفية التعامل مع من أنفق، فلا تستقل قليلاً في الأخذ من المعطي. ولا تستقل قليلاً أيها المنفق من العطاء، فإنها إذا اجتمعت تكاثرت مع بركة الله تعالى.

ثم يعالج تبارك وتعالى احتمالاً قد يقع، بأن يخضع العدو للسلم، ويعدل عن الحرب ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ وإن عدل الكفار الذين ينصبون لكم العداء إلى الصلح ومالوا إلى المسالمة والمصالحة والمهادنة فاقبل المصالحة، لأن كلمة الجنوح تعني الميل، فإن مالوا إلى الصلح فخذ به وميل إليه. ومن دقائق التوجيه الكريم أنه لم يقل تبارك وتعالى: فاجنح لهم، أي ميل إليهم، بل قال تعالى ﴿ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ أي: إلى الصلح، فليكن ميلك هو إلى المسالمة والمهادنة، فليس الميل هو لهم، بل لا ميل ولا محبة لهم، بل انحصر الميل إلى السلم. وهذا من دقة سياق البيان، وإعجازه البياني والبلاغي الدقيق.

ثم وصف تبارك وتعالى ذاته الكريمة العظيمة، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فإن ربكم متصف بكمال السمع للأصوات، وبكمال العلم لكل شيء. فإنه عَزَّ وجل يسمعكم ويسمعهم، ويعلم حالكم وحالهم، وفي هذا ما يطمئن المؤمنين، بأن الله تعالى يعلم الأمر ومغبته، وصدق الصادق، وكذب الكاذب، فلا يخفى عليه شيء. فإن كانت نيتهم الخيانة والخداع فإن الله تعالى يكفيكم الأمر لعظيم علمه وسمعه لكل سيء ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفي هذا احتراز من

أن يحصل منهم الخديعة من المصالحة، فكونه سبحانه وتعالى سميع عليم، وقد يخفى عليكم خديعتهم ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ فإن الذي يتولى كفايتك هو الله تعالى، وإذا تولى الله تعالى كفاية رسوله والمؤمنين أو أحداً من خلقه، فإنه ينصرهم، وينجز لهم الأمر. ومثال كفايته لك: أن أيدك أيها النبي بنصره وبالمؤمنين ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيا أيها النبي قد أيدك ربك بنصره لك على أعدائك، وبالمؤمنين الذين كانوا معك، فكانوا سبباً في النصر. وسواء كانوا هم الأنصار عند خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، أو كان بالمؤمنين عموماً من المهاجرين والأنصار يوم بدر. فكلاهما نصر لرسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا من قوة البيان ورحابته في استيعابه الوجهين الصحيحين. كما أفاد هذا البيان أن الله تبارك وتعالى إذا أراد لأحد من عباده توفيقاً أو نصراً فإنه يؤيده ويعينه ويوفقه، ويسخر له من الأسباب ما يشاء، فيسخر له عباده، والسُبُل والحجج والدعم، فيؤيده بذلك، ويحقق له الخير الذي أراده، أو يدفع عنه الشر الذي قضى بدفعه عَزَّ وجل.

ومن امتنان الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين أن ألف بين قلوبهم ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ فقد تولى الله تعالى بنفسه الكريمة إحداث التآلف بين المؤمنين، سواء بين المهاجرين والأنصار، أو بين الأوس والخزرج، أو بين المهاجرين أنفسهم، فهي نعمة مخصوصة، تولاها سبحانه وتعالى بقدرته، بل إن من عظيم التأليف أن جعله حقيقة، وغرسه في قلوبهم، حتى بلغ بينهم التآلف أن تآخوا فيما بينهم، وتقاسم الأنصار ما يملكون مع إخوانهم المهاجرين، وهذا من المستحيل في الطبائع البشرية، لما جُبلت عليه النفوس من محبة الاستئثار بالمحبوب. مما يفيد أن القلوب بيد الله تعالى، يؤلف بينها بالإيمان والتقوى، والتواد والمحبة في الله تعالى، فيتألم المؤمن للمؤمن، ويقف معه ويسنده بماله وجاهه، لا لشيء إلا لمحبة في قلبه لأخيه المؤمن. وهذه آية من آيات الله تعالى، لو تأملها العبد لوقف عندها مكبراً ومسبحاً ومنزهاً لله تعالى، وشاكراً له كريم فضله وإنعامه.

ثم بين الله تعالى استحالة تحقيق تلك المؤاخاة بالأسباب المادية، لكونها مخالفة للطبيعة البشرية ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ فلو أنفقت أيها النبي كنوز الأرض، وما عليها من مال وممتلكات، لن تتحقق تلك المؤاخاة، وذلك لصعوبة إيجاد أسبابها، واستحالة أمر إيقاع التآخي بينهم، لشدة الأنفة، وقوة حب التعالي في النفوس البشرية، ووجود العداوة والشحناء، وما جبلت عليه النفوس من محبة الاستئثار بالمحبوب والمرغوب عن غيرها، ولكن الله تعالى امتن عليك أيها النبي وعلى المؤمنين بمؤاخاتهم وحصول التواد والتعاطف بينهم، فقد امتن الله تعالى عليهم بهذه المؤالفة التي بلغت ذروتها بينهم، فرضي الله عنهم أجمعين.

ثم نوه سبحانه وتعالى بعظيم صفاته من العزة والحكمة ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فإن ربكم مُتصف بكمال العزة والحكمة، فهو عزيز، فلا يعجزه شيء، وعزيز لا يمتنع عليه شيء، والعزيز المنيع الذي لا يُغَالبه شيء، والذي ذل له كل شيء، فلانت لقوته وعزته الشدائد، كما أن العزيز هو الذي يقهر ولا يُقهر، وأما الحكيم فهو الذي اتصف بكمال الحكمة، والذي يضع الأمور موضعها، وأنه عَزَّ وجل الْمُحْكِم للأشياء والأمور، فلا يفوت عليه شيء، ولا يحصل منه الخطأ ولا الزلة، وأنه هو المستوفي لكمال الحكمة، فهو الذي يدبر الأمور بحكمة، وهو الحاكم، الذي لا معقب لحكمه، ولا حكم أفضل من حكمه سبحانه وتعالى. فمن يتوكل على الله تعالى فقد اعتمد واستند على عزيز حكيم، فلن يكون مخذولاً أبداً، بل إن التسديد منه له، والتوفيق منه له، والنصر والمعونة والعون منه سبحانه وتعالى للمتوكل عليه، الذي وثق بجنابه فأجابه. اللهم اجعلنا ممن توكل عليك حق التوكل فكفيته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى
ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن
يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا
وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ ﴾

يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعاً له عليه الصلاة والسلام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فبدأ الخطاب الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم بالنداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ وفي النداء من الله تعالى بيان لأهمية ما تم النداء له، وتعظيم لهذا الأمر، ورفع قدره ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ يا أيها النبي حسبك الله، وحسبك المؤمنون، أي: كافيك الله وكافيك المؤمنون. ويحتمل أن تكون بمعنى: كافيك وكافي المؤمنين الله[1] فمن بلاغة البيان الكريم

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣٢٤)

استوفى الدلالتين. فإن الله تعالى يكفيك في كل حال، بل ويكفي كذلك المؤمنين الذين اتبعوك. وفي هذا ما يعني كمال القوة، وكمال المعية، وأنك قد استقويت يا أيها النبي والمؤمنون بكفاية الله تعالى لكم، فالقوة التي معكم لن تُقهر، ولن تُهزم.

ثم يأتي بعدها تكرار النداء لأمر آخر تابع لما قبله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ حرض المؤمنين على مناجزة العدو ومحاربته، فطالما أن الله تعالى كافيك وكافي المؤمنين، فزالت الموانع، وقويت البواعث والمرتكزات فشجعهم، وحثهم وشد عزائمهم على قتال العدو. وفي اختيار كلمة ﴿ حَرِّضِ ﴾ ما يدل على ما تحمله من المعاني التي استجمعت جميع ما يشجع على القتال، فهي تعني المبالغة في الحث، وقد جاء في معناها: الحث على الشيء بكثرة، والتزيين، وتسهيل الخطب فيه(١) وكذلك حارض على الأمر، وواظب، وواصب، وأكب(٢) كما أن التحريض بمعنى التحضيض، فاستوفت واستجمعت ما يمكن أن يقوم به القائد تجاه جنوده من تعزيز نفوسهم نحو الشجاعة والإقدام. قال الجوهري: التحريض على القتال: الحث والإحماء عليه، قال الزجاج: التحريض في اللغة: أن تحث الإنسان حثاً يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه، والحارض الذي قد قارب الهلاك، ومعنى حَرِّض المؤمنين على القتال: حثهم على أن يحارضوا، أي يداوموا على القتال حتى يُثخنُونهم(٣) فيبالغ في القتال حتى يُشَفّي على الموت أو يلقاه.

ثم بين الله تعالى حجم القوة التي يعينهم بها سبحانه وتعالى ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ فتصبح قوة كل عشرة من المؤمنين ما تعادل قوة مائة من الكافرين، وكل واحد من المؤمنين بقوة عشرة من الكافرين، واشترط سبحانه وتعالى لتحقيق ذلك أن يتصفوا بالصبر ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ لأن الصبر عمود وقاعدة الثبات وركيزته في مناجزة العدو، ثم أكد لهم ذلك سبحانه وتعالى بعدد أوسع ﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ثم كشف وأخبر سبحانه وتعالى صفة الكافرين، وحقيقة قلوبهم وفهمهم ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أي أن هذا الغلب بسبب جهلهم، وعدم فقههم، وأنهم يقاتلون على غير بصيرة،

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١١٣)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٢٩/٨)

(٣) ابن منظور، لسان العرب (١٣٣/٧)

ومن كان هكذا فهو مغلوب في الغالب[١] وهذه من دقائق القرآن الكريم في كشف الأحوال النفسية للعدو، مما يفيد أهمية فهم العدو من خلال نفسياتهم، وفهمهم في القتال، إلى جانب قوتهم المادية، وأن لا يكون التركيز في فهم العدو على محور عتاده وعدد جنوده فقط، بل يستوعب الجوانب الأخرى عند التقييم لهم. فإذا صدق وصبر المؤمنون في مقاتلتهم للكافرين فإن عدوهم لن يثبت أمامهم.

ثم يتدرج وينتقل السياق إلى بيان تناقص القوة، ومردها وأثرها ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ فلما شق عليهم ذلك واستعظموه خفف عنهم سبحانه وتعالى ورخص لهم، لما علمه عَزَّ وجل من الضعف فيهم[٢] ثم كرر الله تعالى أهمية الصبر ببيان معيته تبارك وتعالى للصابرين ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ وفي هذا استحثاث لهم على الصبر والثبات، وبيان منزلته عند الله تعالى، وأن معيته سبحانه وتعالى تتحقق للصابرين، ومن ذلك الصبر عند لقاء العدو، لما تتطلب مناجزته من ذلك.

ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن تلك الآيات الكريمات: أن قوله تعالى ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ﴾ أن هذا الكلام لفظ الخبر، ومعناه الأمر، والمراد: يقاتل مائتين، وكان هذا فرضاً في أول المر، ثم نُسخ بقوله تعالى ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ ففرض على الرجل أن يثبت لرجلين، فإن زادوا جاز له الفرار[٣] وهذه من فوائد الاستنباط.

ثم يوضح الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الذي يجب عليه تجاه المشركين في غزوة بدر ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال الله جَلَّ ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، يُعَرِّفُهُ أن قتل المشركين الذين أسرهم صلى الله عليه وسلم يوم بدر، ثم قَبِل الفدية منهم، كان الأولى بالصواب القتل من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ حتى يبالغ في قتل المشركين

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٢٤/٢)
(٢) المرجع السابق (٣٢٤/٢)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٧/٣)

ويقهرهم غلبة وقَسْرًا، يقال: أثخن فلان في هذا الأمر: إذا بالغ فيه[١] خاصة وأن معركة بدر الكبرى هي أول معركة في الإسلام، فأراد الله تعالى أن يبالغ رسوله صلى الله عليه وسلم في قتل المشركين، ويقهرهم، لتظهر قوته وشوكته عليهم، حتى تهابه القبائل الأخرى.

ثم يقول تعالى معاتباً المؤمنين يوم بدر ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ تريدون وتبتغون أيها المؤمنون ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي متاعها ونفعها بما حصلتم عليه من فداء الأسرى ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ فإن مراد الله تعالى لكم أن تجنوا ثواب ذلك في الآخرة. وهذه مقارنة بين أمرين: الأول: تحصيل منافع الدنيا، والذي سماه الله تعالى ﴿عَرَضَ﴾ لأنه سريع الزوال، والأمر الثاني: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ فهو متصف بالبقاء والاستمرار، وكذلك هو الأفضل من حيث النوع والكثرة؛ ومن كل وجه، فهذه المقارنة لإدراك الفرق بين مراد الله تعالى وبين مراد العباد. ثم أكد سبحانه وتعالى أهمية متابعتهم لمراد الله تعالى الذي اتصف بالعزة والحكمة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فإن ربكم الله عزيز، فلا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء، وهو المنيع الذي لا يُغَالبه شيء، فهو يريد لكم العزة في الدنيا، وعظيم المثوبة في الآخرة، وأنه بعزته يُذل أهل الكفر، ويقهرهم ويكيد أعداءكم. كما أنه ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو حكيم في اختياره لكم، وهو: القتل وليس الفداء، بأن تقتلوا أعدائكم ولا تطلبوا الفداء منهم، فهو الحكيم الذي يعلم الأصلح لكم، ويختاره لكم، ويرشدكم إليه، وهو الْمُحْكِمُ للأشياء والأمور، فلا يفوت عليه شيء، ولا يحصل منه الخطأ ولا الزلة، وليس هناك حكم أفضل من حكمه عَزَّ وجل.

ثم بعد البيان والإيضاح لهم بحقيقة مرادهم، ومراده سبحانه وتعالى، وما بينه من حكمته عَزَّ وجل، وما وقعوا فيه من الخطأ، يحذرهم بما كانوا يستحقونه من العذاب ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فلولا ما سبق في علم الله تعالى أنه سجل لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم، وأنه غفر لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر[٢] لأصابكم عذاب، متصف بالشدة، مما يبين التحذير من مخالفة أمر الله تعالى، وقد جاء في الحديث ما يبين فضل أهل بدر ومنزلتهم، فقال صلى الله عليه وسلم (لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة)[٣] وكذلك حديث (لعل

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٧١/١١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٢٥/٢-٣٢٦)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح (١٤٢/٤-١٤٣) برقم (٦٢٥٩)

الله عَزَّ وجل اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)[١] قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لولا قضاء من الله سبق لكم، أهل بدر، في اللوح المحفوظ، بأن الله مُحِلُ لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضى أن لا يُضلُ قوماً بعد إذ هداهم حت يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحداً شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصراً دين الله، لنالكم من الله بأخذكم الغنيمة والفداء عذاب شديد[٢] مما يدل على منزلة أهل بدر ومكانتهم، وأنه يجب أن نشهد لهم بما شهد الله تعالى لهم، ورسوله صلى الله عليه وسلم. وكذلك أن الله تعالى لا يؤاخذ أحداً على جهالة حتى يبين لهم.

ومن رحمته سبحانه وتعالى أن طَيَّب خواطرهم بعد هذا العتاب بأن أباح لهم ما أخذوا ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فكلوا أيها المؤمنون من الفداء والغنائم التي أصبتموها من المشركين حلالاً بإحلالها لكم منه سبحانه وتعالى، بل أكده عَزَّ وجل بأن وصفها بالطيب ﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ لينتفي بهذا الحكم التردد في أكلها والانتفاع منها، ومن الفوائد أن خص الله تعالى الأكل ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ لأنه الأظهر في الكسب، وفي استخدامه، ليدخل فيه ما دونه من الأنواع الأخرى، كالخيل والإبل والسيوف وغيرها، فتخصيص الأكل ما يفيد ويعني أن ما دونه يدخل فيه، فقد يبيع ما حصل عليه من الغنيمة ويشتري به طعاماً، أو يستبدله بطعام. وهذه من دقائق اختيار اللفظ دون غيره، ليدرك بلاغة القرآن وإعجازه البياني. فسبحان من أعجز ببيانه عباده.

ثم أمرهم بالتقوى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فالزموا تقوى الله تعالى فيما تستقبلونه من أمركم، وهذا تحذير من أن تعودوا لمثل ذلك أو لغيره مما لم يأذن به الله تعالى لكم. ثم أعقب هذا الأمر والتأكيد فيما أصابوا من الغنيمة، ومن الوقوع في الخطأ، بيان مغفرته سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فربكم مُتصف بكثرة المغفرة والرحمة لعباده. فزاد على المغفرة صفة الرحمة له عَزَّ وجل، فهو يستر ويمحو إثم ما وقع منكم، ويرحمكم، فهو رحيم بكم، إذ رَخَّص لكم في ذلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٧٠) وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣/٣٠٦-٣٠٧) برقم (٤٨٩٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٢٧٦)

مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

يتحول وينتقل السياق الكريم إلى أمر وشأن الأسرى، فيقول الله تبارك وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيخاطب الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله للأسرى، فبدأ الخطاب بياء النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ وفي هذا النداء بيان لأهمية ما تم النداء له ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والأسرى، هم من قُبض عليهم من المشركين في غزوة بدر، فأصبحوا مسجونين مرتهنين في أيدي المؤمنين. وجاء الوصف بما هم عليه ﴿فِيٓ أَيْدِيكُم ﴾ ليدل على التمكن من قبضتهم، وأن الأسرى تحت تصرفهم، وفي ملكهم ووثاقهم، فهي أبلغ في البيان والوصف من غيرها في هذا السياق.

كما أنها وردت الأيدي بصيغة الجمع ﴿فِيٓ أَيْدِيكُم ﴾ لتفيد مجموعة المؤمنين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخاطب هؤلاء الأسرى الذين هم في أيديهم، بأمور ثلاث: الأول منها: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ إن يعلم الله في قلوبكم إسلاماً يخلفكم عَمَّا افتديتم به أنفسكم بما هو أحسن منه وأفضل، وفي تحديد وتعيين القلوب بعلم الله

تعالى ما يفيد قوة وعمق علم الله تعالى بالسرائر، ومعرفة خلجات القلوب قبل أن يفصحوا بها وعنها، فلا يخفى عليه عَزَّ وجل شيء من أمر العبد.

ثم يبين سبحانه وتعالى ما هو المقابل لما أُخذ منهم ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: مما أُخذ منكم من الفداء، فيخلفكم عَمَّا افتديتم به أنفسكم ما هو أحسن، وكلمة ﴿خَيْرًا﴾ تفيد مجمل الخير: نوعاً وكماً، فاستوفت كل وجه من أوجه الخير، وكذلك فيه جزم بتحصيل ذلك، فإن وعد الله تعالى حق لا ريب ولا شك فيه، ودلالة كلمة ﴿خَيْرًا﴾ لم تقصر تحصيله على الدنيا، بل جاءت عامة، لتشمل خير الدنيا والآخرة. وأما كلمة ﴿خَيْرًا﴾ الأولى: من قوله تعالى ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ فهي شرط لتحصيل الثانية. فالأولى إن كانت قلوبكم تحمل خيراً، وهو الإيمان ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ فالخير هو الإيمان والتصديق، وذلك بتحصيل هذا الدين واعتناقه، مما يفيد أهمية العزم القلبي بالخير، وتشبع القلب بالنية الصالحة، فإن الله تعالى يأجر عليه، فيعقبها بخير. وفيه من الفوائد أن الله تعالى يعوض ما يفوت على المؤمن وعلى من أراد الخير بما هو خير منه وأفضل.

والأمر الثاني: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فيصفح عنكم عقوبة جُرمكم بقتالكم نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. والثالث: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب عباده إذا تابوا، ويرحمهم بعد توبتهم، فلا يعاقبهم على جُرمهم، بل يزدهم على المغفرة رحمة، وهي الإحسان الزائد والتفضل بما هو أعظم من الحق، ومما يتوقعه أو يتصوره المرحوم برحمة الله تعالى. وفي هذا ترغيب لهم في الإسلام، وتبشير لهم بالخير العظيم إن هم أسلموا. وقد حصل لمن أسلم أعظم مما أُخِذ منهم من الخير، جاء عند الطبري رحمه الله تعالى: أنه لَمَّا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مال البحرين أمر العباس أن يأخذ منه، فأخذ، وقال: هذا خير مما أخذ منَّا، وأرجو المغفرة. وكان العباس ممن أُسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس رضي الله عنه حين نزلت هذه الآية: لقد أعطانا الله خصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أسرت يوم بدر، ففديت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله[١] فسبحان الله العظيم الكريم، الرحمن الرحيم.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٢٨٥-٢٨٦)

ثم يذكر الله تعالى الوجه الآخر مما قد يريده الأسرى ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فإن أرادوا خديعتك والغدر والمكر بك، بإظهار ضد ما يخفون من النوايا، بالكفر بعد الإسلام، فليس ذلك بجديد عليهم ﴿ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ فقد خالفوا أمر الله قبل موقعة بدر، بخروجهم لمحاربتك ومحاربة المؤمنين. ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ فاستدرجهم حتى أوصلهم بدراً، فأهانهم الله تعالى بالهزيمة والأسر، وأمكن رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين منهم.

وجملة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ تفيد شمولية ما حصل منهم من خيانة لله تعالى. فأمكن اللهُ تعالى منهم يوم بدر، جزاء لمخالفتهم بمحاربة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. مما يبين أن الله تعالى بالمرصاد لمن خان ومكر وخدع، وفي هذا تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، بأن لا تحمل هماً إن كان في قلوبهم أو في قلوب بعضهم غدر وخيانة، فإن الله سبحانه مطلع على قلوبهم، ويعرف ما سيكون منهم، وإن عادوا سوف يمكنكم منهم كما مكنكم منهم يوم بدر، وفي هذا تطمين من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين بإحاطته عَزَّ وجل لكل ما يحصل، وقد سمى الله تعالى صنيعهم بمحاربة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالخيانة ﴿ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ لأنهم طردوه وضيقوا عليه، وآذوه، واعتدوا على من أسلم بالتعذيب، فهذا العمل خيانة لله تعالى مع رسوله صلى الله عليه وسلم ومع عباده المؤمنين. وقد نسب عَزَّ وجل خيانتهم له ﴿ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ لأن النبي صلى الله عليه وسلم هو رسول لله تعالى، فمن خانه فقد خان الله تعالى، ومن حاربه فإنما يحارب الله تعالى، وفي هذا تعظيم لنبيه ولرسالته التي جاء بها. وفي قوله تعالى ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ بيان عظيم قدرة الله تعالى، وكيف استدرجهم حتى أوصلهم بدراً، واغتروا بقوتهم واعتزازهم بها، وتعاليهم، ليسمع العرب بهم، فأهانهم الله تعالى بالهزيمة والأسر، وأمكن رسوله والمؤمنين منهم. مما يربي في المؤمن الأدب مع الله تعالى، وتحقيق التقوى، فإن الله تعالى لا يعجزه شيء.

وخُتمت الآية الكريمة بما يناسبها من علم الله تعالى وحكمته ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فهو عليم بكل شيء، وحكيم في تدبيره للأمور، وفي القضاء والحكم، وفي تصريف الأمور وتسليط العذاب والمهانة، أو النصر والعزة والسلطان.

ثم يخبر الله تعالى عن أمر المؤمنين ممن هاجر من مكة إلى المدينة، ومن آواهم من الأنصار، وكذلك يخبر الله تعالى عن أمر متعلق بمن آمن ولم يهاجر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ

وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فبدأت الآية الكريمة بتعريف المهاجرين من خلال بنود وصفهم، وخصائصهم، لإبراز وإظهار كريم فعالهم وطاعتهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك تمجيداً لفعالهم وصنيعهم، فأول صفاتهم الإيمان: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والصفة الثانية: الهجرة ﴿ وَهَاجَرُواْ ﴾ فتركوا أوطانهم، وأموالهم ومنازلهم. والصفة الثالثة: ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فجاهدوا في سبيل دين الله تعالى بأمرين عظيمين ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أي: بما أنفقوا مما يملكون، أو بما تركوا من نفائس أموالهم، فقد ذكر الله تعالى هنا جهادهم بالمال ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ ولم يقل عَزَّ وجل بما أنفقوا، ليتجاوز الوصف النفقة إلى ما تركوا من أموالهم جهاداً في سبيل الله تعالى، فشمل اللفظ الإنفاق والترك، وهذا من جليل البيان ودقته في القرآن الكريم، وإعجازه البياني. فقد جاهدوا بأموالهم التي هي قوام حياتهم، فأهلكوها في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، والأمر الثاني: متعلق بذواتهم ﴿ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ فجاهدوا بأغلى ما يملكون، وهي النفس، فصرفوها وبذلوها في سبيل إعلاء وإعزاز كلمة الله تعالى، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم تناول السياق الكريم بيان مجد وحال الذين آووا ونصروا المهاجرين؛ وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ فأول صفات الأنصار أنهم آووا المهاجرين ﴿ ءَاوَواْ ﴾ فقد استقبلوا نبيهم صلى الله عليه وسلم والمهاجرين استقبال محبة وحفاوة ونصرة، وكلمة ﴿ ءَاوَواْ ﴾ تدل على الاحتماء والحماية، والاستضافة والدفاع والنصرة، والعناية، وجعلهم في طمأنينة من أمرهم، فهي مجموع من السجايا التي حوتها كلمة مليئة برحابة المعنى كرحابة ما فعله الأنصار، وهي مجموعة من مكارم الأخلاق والمحامد التي استوعبتها لفظة واحدة من كتاب الله تعالى، ففيها بلاغة في البيان وبراعة في كمال الأوصاف، وفيها بيان وتمجيد لعظمة نخوة الأنصار تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدينه وللمهاجرين.

والصفة الثانية: ﴿ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ فتجاوزوا حق الإيواء إلى المناصرة، وبذل المال والأنفس. فتساووا مع المهاجرين في بذل المال والنفس، فأولئك هاجروا، فتميزوا بها، وهؤلاء آووا فتميزوا بها. صنفان عزيزان كريمان، اللهم ارزقنا حب نبيك صلى الله عليه وسلم، وحب المهاجرين والأنصار. واجمعنا بهم في جناتك يا رب العالمين.

فهؤلاء المهاجرين والأنصار تكاملوا في الموالاة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ فهؤلاء المهاجرين والأنصار بعضهم أنصار بعض، وأعوان على غيرهم من الكافرين، وإخوان بعضهم لبعض دون أقاربهم من الكفار، بل ويرث بعضهم بعضا. فإنها خصوصية الدين، التي عزلت خصوصية المكان، وعزلت خصوصية النسب مع الكافرين. فهؤلاء أولى بعضهم ببعض من أقاربهم الكافرين.

ثم ذكر سبحانه وتعالى طائفة أخرى من المؤمنين الذين لم يهاجروا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ فأما الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يتركوا بواديهم ومساكنهم، فينتقلوا من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولم يحققوا الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين المهاجرين، فلهم حكم مختلف ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ فليس لهم أدنى حق من حقوق الموالاة حتى يهاجروا ويلحقوا بالمؤمنين، ولكن لهم حق النصرة ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ وفي حالة أنهم طلبوا منكم نصرتهم على الكافرين فيجب عليكم نصرتهم إلا في حالة واحدة ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ فإن استنصر بكم أولئك المؤمنين الذين لم يهاجروا على قوم بينكم وبينهم عهد وميثاق بأن لا تحاربوهم ولا يحاربونكم، فلا تنصروهم. مما يدل على أهمية الميثاق والعهد في منهج الله تعالى. وكذلك أهمية الانضمام لشوكة وقوة المسلمين. ثم اختتم الله تعالى بيانه الكريم بما يناسب المقام من صفاته العظيمة الجليلة، فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فإن ربكم بصير بكم وبكل شيء، يبصركم، فيعرف حالكم، وما أنتم عليه من لزوم الميثاق والنصرة، والقيام بما أوجبه الله تعالى، وبما التزمتم به. وفي هذا ترغيب وتحذير. فهو ترغيب في استحضار علم الله تعالى ورؤيته لصنيعكم وصنيعهم، وأن الله يجازيهم ويجازيكم بما يناسب كل أحد بما عمل. وتحذير من المخالفة لما شرع لكم معهم.

ثم يبين الله تعالى الوجه الآخر لأعداء هذا الدين ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فالذين كفروا بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم يعضد بعضهم بعضا، ويتولى بعضهم أمور بعض، وفي هذا ما يفيد أن لا تتولونهم، فليس لهم ولاية معكم، فولايتهم منقطعة لبعضهم البعض، مما يفيد أنكم عندهم في بُعد ومنأى من أن يتولوكم، ففيه تنويه تحذيري من موالاتهم. ثم يحثهم الله تعالى على إنفاذ ما أُمروا به ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فإن لم تفعلوا وتتقيدوا بما أمركم ربكم به، من موالاة بعضكم لبعض، فتتناصروا في الدين، وتبتعدوا

عن موالاة الكافرين، وتحققوا البراءة منهم، فستكون النتيجة حصول أمرين مجتمعين معاً: الأول: ﴿ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: تقع فتنة وضلال إن لم تفعلوا ما أمركم ربكم به، والأمر الثاني: ﴿ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾ حصول مفسدة كبيرة في الدين والدنيا، وما يتبعه في شأن الآخرة.

وبهذا يتبين أن بين المؤمنين موالاة واجبة النفاذ، وأنه يجب أن تعزز هذه الموالاة باجتناب موالاة الكافرين، حتى وإن كانوا على نسب منهم، فيجب أن تتحقق وتنحصر مولاة المؤمنين فيما بينهم، وأن نَسَب الإيمان أقوى من نسب القرابة. ويكشف بيان الله تعالى أنه إذا حصلت موالاة بين بعض المؤمنين والكافرين فإنه بذلك تتحقق حصول الفتنة العظيمة بين المؤمنين، لأن المؤمن الذي يوالي بعض الكافرين، يقف مع من والاهم من الكافرين على المؤمنين باعتبار الموالاة وما يقتضي ذلك من النصرة والاصطفاف معهم، فيصبح المؤمن يحارب المؤمن باعتبار مَنْ والاهم من الكافرين، وإذا حصل ذلك الأمر حصلت الفتنة، فأدت إلى حصول الفوضى، وعدم انتظام نظام المؤمنين، ومن ثَمَّ يتحقق الفساد الذي تفسد به الحياة، فلا يأمن المؤمن على نفسه وماله وعرضه ودمه ودينه من المؤمن الآخر. مما يبين أن لله تعالى الحكمة البالغة في تنظيم أمر الموالاة بين المؤمنين، وأن أثرها على المؤمنين عظيم، وفي عدم تحقيقها الهلكة والفساد والفوضى.

ثم يبين الله تعالى حقيقة الإيمان وحقيقة المؤمنين ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ فالمؤمنون هم الذين اتصفوا بالمواصفات التي بينها تبارك وتعالى، وأولها: الإيمان ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والصفة الثانية: ﴿ وَهَاجَرُواْ ﴾ بالهجرة إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصفة الثالثة: ﴿ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بأن حاربوا ودافعوا عن دين الله تعالى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصفة الرابعة متعلقة بالأنصار، لأن صفة الهجرة لا تنطبق عليهم، وإنما تنطبق عليهم صفة أخرى لا تنطبق على المهاجرين، وهي الإيواء ونصرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرين ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ صفتان: هما: الحماية، والدفاع والعناية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا ﴾ فهؤلاء منهم من حققوا إيمانهم بالهجرة والنصرة ومنهم من حقق إيمانه بالإيواء والنصرة، فهؤلاء جميعاً ﴿ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ فللمهاجرين والأنصار الذين اتصفوا بهذه الصفات؛ لهم المغفرة من الله تعالى، بستر ذنوبهم، وعفوه عنها، وكذلك لهم الرزق الكريم ﴿ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ فلهم في جنات الله تعالى رزق من المطاعم والمشارب الهنيئة الكريمة الجامعة لكمال اللذة، وخالصة من

كل كدر، ولا ثمة ما يمنع من دلالة النبيان الكريم أن يجمع الله تعالى لهم بين تحصيل ذلك في الدنيا بما يناسبها، وفي الآخرة بما يناسب مقامها وخصوصيتها، لأن السياق لم يحددها أو يحصرها بالدنيا ولا بالآخرة، وعطاء الله تعالى وكرمه واسع وعظيم.

وقد ذكر الله تعالى صفة المؤمنين حقاً في أوائل آيات هذه السورة ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾ فمن الفوائد في الفرق بينهما أن التي في مطلع السورة، ذكرت الصفات التي يستوفيها المؤمن في أي زمان ومكان، فيكون مؤمناً حقاً، بينما هذه الصفات خاصة بأولئك المؤمنين من المهاجرين والأنصار، فاستوفوا فيها الصفات العامة والصفات الخاصة، فاجتمعت فيهم الخاصة والعامة.

ثم يبين الله تعالى حال ووضع من حصلت لهم الهجرة بعد المهاجرين الأولين ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ﴾ فالذين آمنوا من بعد المهاجرين الأولين، قال ابن عباس: هم الذين هاجروا بعد الحديبية[1] فلحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وايضاً شاركوا في الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع المؤمنين ﴿ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ﴾ فهؤلاء منكم، فقد أصبحوا منكم.

ثم بين تبارك وتعالى العلاقة في النسب بين المؤمنين ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء، حتى نزلت هذه الآية، فتوارثوا بالنسب[2] فلما كانت الحاجة والواقع كان التوارث بينهم دون النظر إلى النسب، فلما استقر الأمر نسخ الله تعالى ذلك بما هو أكمل وأنسب للواقع الجديد، ولمستقبل المؤمنين جميعاً إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وهذا من كمال منهج الله تعالى في معالجة الواقع بما يناسبه. وكذلك التدرج بهم إلى ما يناسب جديد ومستقبل المؤمنين. وبيان لفضل وفضيلة نزول القرآن مفرقاً خلال بعثته صلى الله عليه وسلم، ليعالج قضايا الأمة في حينه، وليمتد حكمه وسلطانه لما بعده بقوة أسلوب وبلاغة بيانه الذي أعجز به العباد أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا جميعاً.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٣/٣)

(٢) المرجع السابق (٢٦٣/٣)

وقد أكد سبحانه وتعالى أنه قضى هذا الأمر في كتابه ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ وسواء كان المقصود به القرآن الكريم أو اللوح المحفوظ، فهو حكم الله تعالى. ثم أختتم الله تعالى توجيهه الكريم بكمال وتمام علمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم عليم بما قضى وبما يقضي، وبما تعملون، فلا يخفى عليه شيء في ملكوته، فإن جملة ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ تفيد الاستقصاء والاستيفاء ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فعلمه سبحانه وتعالى مستوفي لكل شيء، فلا يخفى على علمه عَزَّ وجل لا دقيق ولا صغير ولا كبير، ولا مستتر بظلمة، ولا المستخفي في قلوب البشر. فسبحان الله العظيم الذي استوفى علمه كل شيء، فلا يخفى على علمه الكريم خافية في الأرض ولا في السماء.

فتم بحمد الله إتمام ما يتعلق بسورة الأنفال، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.